الفصل الأول

الشرق والغرب

١ – فى العصور الوسطى

« الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . هذه الكلمة للشاعر الإنجليزى « كبلنج » ترد على كل لسان ، ويجرى بها كل قلم كلما تناول الحديث أمور الشرق والغرب . ومن الكتّاب والمحدثين من يؤيدها ، ومنهم من ينقضها . ومنهم من يسلم بأنها تنطوى على جانب غير قليل من الحق ، ثم يحاول أن يجد الوسيلة لالتقاء الشرق والغرب والميدان الذى يلتقيان فيه . ولقد أتيح لى أن أقف من قبل عند هذه الكلمة ، وأن أحاول إيجاد الصلة بين الشرق والغرب ، كأنما كانت هذه الصلة غير موجودة من قبل .

وإننى اليوم لأبتسم إذ أذكر هذه المحاولة من جانبى ، وأبتسم حين أقرأ كلمة « كبلنج » . . فالشرق شرق والغرب غرب هذا صحيح . لكن الشرق والغرب التقيا منذ أبعد حقب التاريخ ، وهما يلتقيان دائماً وسيلتقيان ما بقى فى العالم شرق وغرب . والنضال مستمر بينهما لم تهدأ قط يوماً ثائرته . وما عسى يكون التلاقى إذا لم يكن فى نضال . وهل الحياة فى رأى العلماء من معاصرى «كبلنج» وأصدقائه غير النضال .

كذلك يقول « داروين » فى نظريته عن النضال للحياة Struggle) (For Iife ، وكذلك يقول : « شوبنهور » عند حديثه عن فلسفة الحب ، وأنه ليس هذا المعنى الخيالى الجميل الذى يتغنى بـه الكتاب والشعراء ، وإنما هو الجهاد العنيف لتخليد النوع وتحسينه فمن عجب أن يحاول الكتاب أو المفكرون خلق صلة بين الغرب والشرق وهذه الصلة موجودة منذ القدم ، وهذا الالتقاء بينهما هو الذى أثار فى العالم حضارات العالم ، وهو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب الدينى قبساً بعد قبس من ضياء النور والهدى والعلم . وفى هدى هذا الضياء سار العالم نحو الكمال خطواته البطيئة القليلة خلال بضعة آلاف السنين التى نعرف .

وهذا الالتقاء بين الشرق والغرب لقاء نضال ينتهى مرة إلى غلب ، وأخرى إلى هدنة ، وثالثة إلى صلح ، ورابعة إلى تعاهد وتحالف تجارى أو حربى هو بعينه الالتقاء بين دول الغرب نفسها ، لقاء ينتهى لواحدة أو لأخرى من هذه الغايات .

وكما أن دول الغرب قد تحالفت فى حقب مختلفة كذلك لتناوئ دول الشرق . كما تحالفت كذلك دول الشرق فى حقب مختلفة لتناوئ دول الغرب ، فقد حدث فى غير هذه وتلك من الحقب أن تحالفت دول من الشرق وأخرى من الغرب لتناوئ غيرها من دول الشرق أو الغرب ، أو من دول منهما متحالفة هى الأخرى .

على أن التقاء الشرق والغرب لقاء نضال وتطاحن كان أكثر اتصالا على التاريخ من تفاهم الشرق والغرب ، أو من تفاهم بعض الدول من الشرق ومن الغرب . ولسنا نر يد أن نفصل ذلك هنا فتفصيله ليس مقصد

هذا الكتاب . ولكنا جميعاً نذكر كيف كان الغزو متصلا بين مصر الفراعنة واليونان ، وكيف كان الغزو متصلاً بعد ذلك حين استولى « إسكندر الأكبر » على مصر حوالى سنة ثلثمائة قبل الميلاد ، وكيف غزت مصر اليونان من بعد ذلك فى عهد البطالمة أنفسهم ، ثم كيف غزا اليونان مصر تحت حكم « يوليوس قيصر » ، وكيف انتهت دولة البطالمة المصرية بانتحار « كليوباطرة » . هذا المد والجزر بين مصر واليونان وروما قد حدث مثله بين فينيقيا ومصر ، وبين فينيقيا واليونان وروما . وفى هذه العصور كانت الوثنية منشورة اللواء فى هذه النواحى المعروفة من عالم يومئذ فى صور إيمانها وطقوس عباداتها المتباينة المختلفة . ولم يغير ظهور « موسى » وبنى إسرائيل من هذا الوضع فى مد العالم يومئذ وجزره تغييراً يذكر . فقد خضع اليهود فى ذلك العصر لحكم روما خضوع إذعان وسكينة قانعين بأرض المعاد والمقام حول قدس « سليمان » وما جاوره من الأماكن المقدسة ، فلما ظهرت المسيحية فى جوار قدس سليمان ، وفى أرض المعاد ، كان طبيعيًّا أن يدس اليهود لها عند الحكام الرومانيين وأن يحاولوا إظهارها فى مظهر الثورة على سلطان الدولة . لكن المسيحية لقيت من نفوس الطوائف التى كانت مضطهدة حين ظهورها — وما أكثر ما كانت — إقبالا عليها أن كانت تعدها النعمة فى السماء جزاء ما لقيت على الأرض من شر وعنت وبقيت المسيحية حظًّا موقوفاً على هذه الطوائف المضطهدة أجيالا حتى أتاحت الأقدار لها أن تنفذ إلى قلب حاكم رقيق العاطفة محب للضعفاء ، وانتقلت المسيحية من روما إلى البلاد التى كانت خاضعة لحكمها . انتقلت إلى مصر والشام واليونان . ثم امتدت من مصر إلى الحبشة وإلى اليمن . ثم جعلت تغزو فى بطء وسكينة بعض

نواحى العراق فى الشرق . وبعض نواحى أوربا البربرية إذ ذاك فى الغرب .

وفى أواخر القرن السادس المسيحى ظهرت الدعوة الإسلامية . ظهرت أول أمرها ضعيفة متواضعة برسولها اليتيم الأمى وبالعدد القليل الذى اتبعه ، قوية بالدعوة إلى التوحيد وإلى الحرية وإلى الرحمة وإلى الإخاء ، دعوة تناولت القوىَّ والضعيف ، والغنى والفقير ، والمترف والمحروم . ظهرت هذه الدعوة أول أمرها ضعيفة متواضعة لم يشعر بها أحد ولم يدع صاحبها إلى اتباعه غير عشيرته الأقربين . لكنها كانت دعوة إلى المثل الأسمى فى الإيمان وفى الخلق وفى التضحية وفى تمنى الموت فى سبيل الحق والحرية والخير والفضل والعدل ، لذلك استجاب إليها كثيرون من أهل مكة طيِّبة نفوسهم بما تلقى فى سبيل إيمانها من اضطهاد وتعذيب . وتعاقبت السنون والمؤمنون بالدعوة يزدادون عدداً ويزدادون فى إيمانهم قوة ، وللعذاب فى سبيل هذا الإيمان حبًّا . ثم عرض « محمد » نفسه على القبائل أثناء حجها الكعبة فاستهانت فى البداية بأمره . لكن كلماته انطبعت فى نفوس الكثيرين من أبنائها . وعرفت بلاد العرب أمر « محمد » وأصحابه ، ثم اشتد ساعده ببيعة العقبة الكبرى ، وبالهجرة إلى المدينة ، وبانتصاره على قريش وبفتح مكة وبدخول العرب فى دين الله أفواجاً . وأرسل « محمد » رسله إلى الملوك والأمراء من حوله يدعوهم إلى الإسلام ويعدهم سعادة الدارين .

ولقد أحاطت بمحمد حين دعوته بيئة معادية أشد العداوة . أحاط به العرب الوثنيون الذين كانوا أشد الناس له عداوة ، واليهود المنبثون فى أنحاء شبه الجزيرة وفى جنوب الشام ، والمجوس فى فارس والنصارى فى اليمن من الجنوب ، وفى الإمبراطورية الرومانية والبلاد الخاضعة لحكمها من

الشمال والغرب . لكن هذه الدعوة الجديدة لم تلبث أن ظفرت بهذه القوى جميعاً ؛ ففى أقل من مائة سنة عقب وفاة النبى امتد سلطان الإسلام إلى الشام وإلى مصر وإلى شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلنطى ، وانتقل من مراكش إلى إسبانيا كما امتد فى قلب آسيا حتى أواسطها . وفى فترات متعاقبة متقاربة بعد ذلك امتد إلى الهند وإلى جزر الهند الشرقية وتغلغل فى أفريقيا وفى آسيا . وبذلك قامت فى العالم إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف تنقلت عاصمتها من مكة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة وأحيت فى العالم حضارة جديدة انكمشت أمامها الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية ووقفت إزاءها المسيحية خائفة تترقب . وعن خوف المسيحية وعن ترقبها نشأت الحروب الصليبية متطلعة أنظار أهلها جميعاً إلى بيت المقدس ، إلى جواره ولد « المسيح » وفيه قام المسجد الأقصى وعلقت صخرة « سليمان » . وظلت هذه الحروب قائمة تثور حيناً وتهدأ حيناً ولا تصل المسيحية منها إلى شىء مما تبغى حتى ظنت فى ختام الحرب الأخيرة الكبرى سنة ١٩١٨ أنها بلغت غايتها بوضع إنجلترا وحلفائها أيديهم على بيت المقدس وهتاف « الفلد مارشال اللنبى » قائد قوات الحلفاء فى الشرق الأدنى يومئذ قائلا : (اليوم انتهت الحرب الصليبية) .

برغم هذه الخصومة الأصيلة فى النفوس والتى بدت من جانب أوربا منذ الحروب الصليبية الأولى فقد أبدى الشرق فى هذه القرون جميعاً من التسامح الدينى ما يجدر بالمؤرخ المنصف تسجيله وتقديره . والأمر كذلك بنوع خاص حين مجد الشرق وازدهار الحضارة الإسلامية فى ربوعه . أى منذ فجر الإسلام إلى ما بعد فتح الأتراك القسطنطينية وتوغلهم فى أوربا إلى أسوار فيينا . ففى تسعة قرون متوالية كانت النعرة الصليبية

تجمع الجيوش فى ممالك أوربا المختلفة وتتجه بها تحت إمرة ملك إنجلترا أو ملك فرنسا أو غيرهما من ملوك النصرانية قاصدة غزو المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم يكن ذلك لأن الدول الإسلامية كانت تصد المسيحيين عن أداء الطقوس الدينية فى بيت المقدس . فقد كانت هذه الطقوس تؤدى . وكان المسيحيون ، سواء منهم من استظل بلواء الدولة الإسلامية ومن قدم من بلاد أجنبية ، يقومون بها فى أمن وسكينة لا يكدرهما مكدر . وإنما كان ذلك تعصباً للمسيحية حرصاً من أهلها على الأخذ بالثأر . وكان المسلمون فى مختلف العصور يكتفون بصد الغزوات الصليبية دون أن يهبوا لغزو أوربا المسيحية انتقاماً منها عن اعتدائها على ديارهم ، بل كان هؤلاء المسلمون يحسنون معاملة الغزاة المسيحيين الذين يقعون فى أسرهم حتى سجل المؤرخون الأوربيون ذلك لهم بمداد الإعجاب والفخر . ولم يغير تكرار الغارات من نفس المسلمين ولا هو أغراهم بالانتقام من « لويس التاسع » حين أخذوه أسيراً بالمنصورة ، ولا هو أغراهم « برتشارد قلب الأسد » حين كان فى سلطان « صلاح الدين الأيوبى » ويده . وليس لمؤرخ منصف إلا أن يسجل للمسلمين بالإعجاب والفخر دفاعهم عن ديارهم التى أصبحت إسلامية ودخلت فى حوزة الإسلام منذ عصوره الأولى ، وأن يشهد بأنهم كانوا على حق فيه ، بينما كان الصليبيون هم الثائرين المثيرين . وبينما كان التعصب الدينى هو الحافز لهم على العدوان عدواناً لم يكتب لهم التوفيق فيه خلال خمسة عشر قرناً كاملة .

ما سبب هذا الاندفاع من جانب أوربا المسيحية ؟ وكيف بقى المسلمون أيام مجدهم يكتفون من هذا الاندفاع بصده دون مواجهته بغزو مثله ؟ أما

اندفاع أوربا المسيحية فمصدره عاملان : أولهما أن الإسلام أغار فى أول أمره على بلاد مسيحية كانت روما وكانت القسطنطينية من بعد ترجو أن تتخذها قواعد لازدياد انتشار المسيحية ، وكانت الشام ومصر أهم هذه البلاد ، وثانيهما أن الإسلام أقام من البلاد التى فتحها ونشر علمه فيها سداً يفصل بين أوربا المسيحية وبقية العالم يومئذ ، والذى لم يكن يزيد على أفريقية وآسيا وأوربا ، فأمريكا لما تكن قد اكتشفت . وقد بدأ الإسلام يصد تيار المسيحية فى اللحظة التى توسمتها فاتحة النصر وبداية الوثبة إلى قلب آسيا وأفريقية ، فقد كانت الحرب السجال قائمة بين فارس المجوسية وبيزنطة المسيحية ، وكان لفارس فيها الغلب أكثر الأمر ، فلما بدأ الحظ يتغير فى هذه الحرب ليبتسم « لهرقل » عاهل المسيحية فينتصر على المجوسية ويمكنه من استرداد الصليب الأعظم من فارس وإعادته إلى بيت المقدس فى حفل عظيم ، أوفى فيه بنذره أن يسير من عاصمة ملكه إلى المسجد الأقصى على قدميه يحيط به أتباعه وجنده ويتقدمهم هذا الصليب الأعظم رمزاً مقدساً للإيمان والنصر . وإنه فى هذه اللحظة وفى هذا الحفل يفى بنذره إذ جاءه رسول النبى العربى بكتاب « محمد بن عبد الله » يدعو فيه هرقل ملك الروم إلى الإسلام. ولم تمض سنوات بعد ذلك حتى كان بيت المقدس وكانت الشام كلها فى قبضة المسلمين ، وحتى وقف هذا الدين الجديد ووقف سلطانه ووقفت جيوشه الظافرة حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى آسيا . وفى سنوات أخرى من بعد ذلك اندفع تيار الإسلام إلى مصر وإلى شرق أفريقيا حتى مراكش وحتى غزا المسيحية فى إسبانيا ، فوقف الدين الجديد وسلطانه وجيوشه حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى أفريقية . فإذا ظلت أوربا المسيحية مكتظة النفس غلاً

وحفيظة على هذا الدين الجديد وأهله ، وإذا هى حاولت فى فترات كثيرة مختلفة أن تسير جيوشها الصليبية لغزوه وغزو أهله ، فلها من هذين العاملين عذر وشفيع ، ولها فيما يملآن به النفس حرصاً على الأخذ بالثأر أكبر الرجاء فى أن يكون لها على خصومها الفوز والغلب .

لكن جهود أوربا ذهبت مع ذلك هباء وتحطمت على صخرة هذا الإسلام الناشئ المطمئن إلى عزه وإلى قوته . فلماذا ؟ وكيف تندحر أوربا ولديها من الأسباب النفسية للظفر ما يهيئ أمره ويجعله ميسوراً ؟ علة ذلك ترجع فى رأيى إلى جمود النصرانية يومئذ وإلى اجتهاد الإسلام . ففى هذه العصور الوسطى المسيحية كانت الكنيسة قد استأثرت بكل أمر ووضعت يدها على كل شىء . كان الملك فى حاجة إلى رضا الكنيسة عنه وإلى مباركتها إياه ليطمئن إلى ملكه وإلى طاعة شعبه إياه ، وكان رجال الدولة يذعنون للكنيسة ويلتمسون بركتها . وكانت كلمة الكنيسة معتبرة كلمة الله وكلمة « المسيح » وكلمة الروح القدس نفسه ، لا يستطيع أحد أن يرفع إليها باصرته إلا بنظرة تقديس وإجلال لا تشوبها خلجة تساؤل أو ريب . وبذلك استشرى سلطان الكنيسة إلى كل نظام ، وإلى كل مجتمع ، وبلغ حتى دخل مع الأسرة دارها ، ومع كل رجل قلبه فاحتل فؤاده وأخذ عليه عقله وعاطفته وكل حياته . بذلك حملت الكنيسة وحدها عن الناس تبعاتهم ، وجعلت نفسها نائبة عن الله فى المغفرة لهم . وبذلك استأثرت الكنيسة بحريتهم ، وبعقولهم ، وبضمائرهم ، فأصبحوا لها عبيداً سعداء بعبوديتهم ، سعداء بالطابع الذى طبعتهم وتطبعهم به . ولم لا يكونون سعداء وقد نفت عنهم الكنيسة كل تكاليف الحياة الإنسانية . فليس لأحدهم أن يفكر مخافة أن يدفع به التفكير إلى الخطيئة . وليس لأحدهم أن

يحب مخافة أن يدفع به الحب إلى الخطيئة ، وليس لأحدهم أن يتصرف فى أمر من الأمور برأيه مخافة أن يدفع به رأيه إلى الخطيئة . والكنيسة وحدها هى التى تفكر للناس جميعاً ، وهى التى تدلهم على ما يحبون وعلى ما لا يحبون ، وهى التى ترشدهم إلى ما يتصرفون به فى جليل أمورهم وتافهها . رسمت لهم حدود كل شىء وجعلت تخطى هذه الحدود خطيئة ، حتى حدود عواطفهم وأهوائهم . حتى حبهم لأزواجهم وأبنائهم . بل رسمت لهم كذلك طريق السعى والعمل وطريق الاستحمام والنوم . قيدت وجودهم الإنسانى بأغلال من حديد ، وجعلت منهم آلات لا تريد إلا بإرادتها ولا تتحرك إلا بأمرها ولا تتنفس إلا هواءها . وآمنت هذه الآلات بأن هذا الجمود هو سبيل السلام ووسيلة النجاة والسلّم إلى السماء يرتقيه الإنسان ليصل إلى مقعده بين البررة الأطهار . إذا وصلت الإرادة الإنسانية إلى هذا الفناء وكبلت حرية العقل وحرية الضمير بهذه الأصفاد فقد ضمرت فيها قوة الحياة فلم يبق لها على الحياة قوة ، ولا على أحد من أهل الحياة سلطان ، ولم يبق لها إلى النصر والغلب سبيل .

بينما كانت الكنيسة المسيحية فى العصور الوسطى تصل بالشخصية الإنسانية إلى هذا الجمود الذى يقعد بها عن أن تريد أو أن تعمل ، كان الإسلام فى نشأته وفى فتوة شبابه يحطم القيود ويرفع عن الذاتية الإنسانية كل عبودية لغير الله وحده إياه نعبد وإياه نستعين . لم يعرف هذا الإسلام الناشئ كنيسة ، ولم يجعل لأحد من الناس على أحد سلطاناً ، ولم يجعل لعربى فضلا على أعجمى إلا بالتقوى . لذلك ما لبث الأعاجم من أهل فارس وأمثالهم من البلاد الخاضعة لملك الروم أن اعتنقوا الإسلام حتى رأوا فيه الحرية للعقل والعاطفة والشعور ، الحرية التى تنكر الفوضى

والإباحية إنكارها للاستبداد والعبودية ، الحرية التى تعترف للعقل والقلب وللمنطق والإلهام بحقها جميعاً فى تنظيم حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل للفرد السيادة وللجماعة الطمأنينة فى حدود تقوى الله ورضاه على ما نزل بها القرآن ، لا على ما تريدها أهواء ذوى الحكم والسلطان . لذلك نهل المسلمون من ورد هذه الحرية فغزوا بعقولهم وبقلوبهم علوم اليونان وفلسفتها وحكمتها وحكمة فارس وخيالها وشعرها . ولم يكن لأحد ولا لصاحب السلطان أن يصد عن ذلك إن لم يشجع عليه . وكيف يصد الحاكم عنه ، وإنما هو وكيل المسلمين فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه فى القرآن الكريم . إن نظام الحكم الإسلامى لم يكن نظاماً أوتقراطياً للحاكم فيه الكلمة العليا . بل كان نظاماً محدوداً خير من عبر عن حدوده « أبو بكر » حين ولى الخلافة ، إذ خطب الناس فقال : « أيها الناس ، إنى قد وليت أمركم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » . وبالرغم من أن هذا النظام الذى رسم للحاكم حدوده الضيقة لم يلبث طويلاً فى هذه الحدود ، ومن أن الخلافة سببت ملكاً عضوضاً منذ خلافة « معاوية بن أبى سفيان » . فإن الحرية التى أباحها الإسلام للمسلمين بقيت مكفولة لهم عصوراً طويلة يتمتع بها العرب وأهل الشام والفرس وأهل مصر وكل من استظل بسلطان الدين القيم مسلماً كان أو من أهل الكتاب ، وبهذه الحرية أمعن المسلمون فى نهلهم من فلسفة اليونان وأدبهم ومن حكمة الفرس وخيالها ، ومن كل ما يتصلون به أو يتصل بهم فى البلاد التى تدين لهم أو تتعاهد وإياهم . والحرية الإنسانية لا غالب لها ما تحطمت من حولها القيود وما استمتع بها الإنسان

متاعاً صحيحاً . وقد ظلت هذه الحرية للمسلمين مكفولة إلى أن جاء العباسيون فزادوا فى سلطان الحكم المطلق خطوة جديدة بعد خطوة الأمويين ، خطوة نقلت الحكم من الشورى الإسلامية الصحيحة إلى الإطلاق الفارسى إطلاقاً مهد للانحلال الذى أصاب سلطة الإسلام فى بغداد فنقل الحضارة الإسلامية التى ازدهرت فى آسيا طوال عصر الأمويين والعباسيين لتزدهر فى أفريقيا على ضفاف النيل ولتتخذ القاهرة مقرًّا لها . ولئن كانت القاهرة قد تأثرت إلى حد غير قليل بما أصاب دمشق وما أصاب بغداد فإنها احتفظت بالتراث الإسلامى الذى انتقل إليها كخير ما يكون الاحتفاظ به ، لأن حظًّا غير قليل من الحرية كان لا يزال مسموحاً به للعلماء والمفكرين والشعراء وذوى الرأى والمكانة من المسلمين المصريين ، ومن المسلمين الذين نزحوا إلى القاهرة حين استقر ملك الإسلام فيها .

طبيعى ألا يوفق الصليبيون فى غزواتهم بعد الذى رأيت من هذه المقارنة السريعة بين حالهم وحال المسلمين فى هذه الفترة من فترات عصور المسيحية الوسطى . وطبيعى أن يزيدهم توالى الانحدار حقداً على المسلمين . لكن حقدهم لم يكن قادراً على شىء . فالجمود والتعصب حقودان بطبعهما ، عاجزان كذلك بطبعهما . والحرية والاجتهاد فى صورتهما الصحيحة لا يعرفان الحقد ولكنهما لا يغلبان ، ولذلك لم يقابل المسلمون غزوات الصليبيين بغزوات مثلها . ولذلك كان الصليبيون كلما دارت عليهم دائرة الهزيمة ارتدوا إلى ديارهم فاستجموا زمناً يجترون خلاله هزيمتهم ثم تضطرم من جديد نار الحقد فى نفوسهم بعد سنين أو عشرات السنين فيتجهزون لحرب صليبية أخرى يكون نصيبهم فيها الهزيمة التى كانت تصيبهم فى سابقتها . وفيما بين الهزيمتين ، وخلال عشرات السنين هذه ، يطمئن

الأوربيون ويطمئن أهل الشرق إلى حياة سكينة وجد وسعى فى مناكب الأرض ابتغاء الرزق . وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الأتراك من آسيا غـزاة يفتحون الممالك ويدوخون الملوك ويظفرون بدول الإسلام أكثر مما يظفرون بدول المسيحية ، ثم يتوغلون فى أوربا حتى تصدهم أسوار فيينا .

كان هذا نصيب الحروب الصليبية ، وكانت تلك أسباب فشل الصليبيين فيها . على أن واحدة من هذه الحروب الصليبية قد نجحت وقد بلغت من النجاح أكثر مما كانت تطمع أول أمرها فيه . تلك هى الحرب التى أجلت أوربا فيها الإسلام من الأندلس ، فقد دخل الإسلام حين سؤدد سلطانه إلى شبه جزيرة إيبيريا آملاً أن يمتد منها إلى فرنسا وإلى سائر أوربا ليتصل بالإسلام الزاحف من الشرق عن طريق الشام والأناضول إلى المملكة الرومانية . لكن هذا الزحف من ناحية الشرق وقف بعد أن بدأ انقلاب نظام الحكم من الشورى الإسلامية إلى الأتوقراطية الفارسية ، وبعد أن أتى هذا الانقلاب ثمرته المحتومة ، انحلال القوى المعنوية وتضعضع الإيمان الصادق فى النفوس . لذلك لم يتح للذين فتحوا الأندلس أن يتوغلوا فى أوربا بعد أن صدتهم عن التقدم إلى فرنسا فاكتفوا بإقامة الدولة الإسلامية فى إسبانيا وظلت هذه الدولة قوية مزدهرة زمناً ، لكنها أصيبت هى الأخرى فى نظام حكمها بما أصيبت به بغداد وسائر الأقطار الإسلامية . ثم إنها اطمأنت إلى النعمة المادية فى الأندلس طمأنينة آتت ثمراتها ، وثمرات الطمأنينة فى النعمة المادية التنافس عليها والتحاسد فى سبيلها والتناحر والتطاحن للاستزادة منها . وذلك ما حدث . وكان من أثره أن كثرت الإمارات وأن ضعف السلطان المركزى وأن طمع المسيحيون فى استرداد ما يؤمنون بأنه حقهم ، وشغلت سائر دول الإسلام يومئذ

بمثل ما شغلت به الأندلس من الجرى وراء مطامع الحياة الدنيا والتفانى فى سبيلها تفانياً أنسى المسلمين أنهم إخوة يجب أن يسرع كل منهم إلى نجدة أخيه . وأجلت المسيحية الإسلام عن الأندلس واستعادت إسبانيا كلها وإن قعد بها ما وصفنا من جمودها عن أن تتأثر المسلمين فى تراجعهم وأن تتبعهم فى أفريقيا . وبذلك بقيت القوتان الإسلامية والمسيحية وجهاً لوجه يفصل بينهما البحر المتوسط ، وقد دب إلى دول الإسلام انحلال كالذى أدى إلى هزيمة المسيحية . انحلال سببه هذا الجمود الذى أصاب المسلمين فجعل علماءهم ومفكريهم ينزلون لصاحب السلطان عن حريتهم ويضعون تحت تصرفه علمهم لقاء ما يغدقه عليهم من نعم مادية كانوا أشد فرحاً بها منهم بحريتهم وبعلمهم . وبذلك لم يقووا على صد غزوة الترك الذين ظفروا بهم ثم ظفروا من بعدهم بالقسطنطينية وبما تلاها من بلاد المسيحية حتى فيينا .

لم يكن الأتراك فى هذا الغزو دعاة إلى حضارة ، ولا دعاة إلى دين . بل كانوا غزاة طامعين فى أسلاب الغزو وفى استغلال الأمم التى يغزون على مثال أكثر الغزاة فى ذلك العصر وعلى مثال أوربا فى هذا العصر الحاضر ، ولقد كان لهم من العذر فى ذلك أن ظروفهم الخاصة لم تكن لتهيئ لهم الاضطلاع بعبء حضارة معينة ، لقد كانوا مسلمين ، وكان الطبيعى أن يرتعد أعداء الحضارة الإسلامية المهددة يومئذ بالانحلال تحت أنقاض الجمود . لكن مقومات الحضارة الإسلامية كانت تعوز هؤلاء الزاحفين من قلب آسيا حيث كانت تحيط بهم أثناء مقامهم فى وطنهم صور من العقيدة والحضارة لا تتفق فى شىء مع صور الحضارة الإسلامية والعقيدة الإسلامية . ثم إنهم أبدوا حرصاً على لغتهم ونفوراً من

اللغة العربية. واللغة العربية كانت فى البلاد الإسلامية جميعاً لغة الدين ، ولغة العلم ، ولغة الأدب ولغة المقومات الأساسية جميعاً لأية حضارة من الحضارات. لذلك كانوا أشد حرصاً على مغانم الغزو منهم على تأييد الحضارة الإسلامية. ولذلك لم يفكر أحد منهم فى رفع نير الجمود الذى أصاب المسلمين فى عقائدهم وفى فقههم وفى لغتهم وإن حرصوا على أن يأخذوا من مصر ومن سائر البلاد التى غزوا مهرة الصناع ورجال الفن ممن وثقوا بمقدرتهم على تشييد المظاهر المادية وعلى توطيد أسباب الثروة والنعمة المادية. كانت النتيجة المحتومة لهذا الغزو التركى المعتمد على الملكات الحربية ، والنفور من مقومات الحضارة الإسلامية الصحيحة ، أن ازدادت الأمم الإسلامية جموداً فى العقيدة وفى التفكير. وإن نشأت فيها طائفة من رجال الدين على مثال الطائفة التى قيدت المسيحية فى عصورها الوسطى بأثقل الأغلال : طائفة أنكر الإسلام منذ ظهوره حقها فى الوجود ، ووضعت طائفة رجال الدين المفتعلة نفوذها وحريتها وما تدعى من علم فى خدمة الغزاة الغالبين مما أدى إلى استمرار الانحطاط والتدهور فى العالم الإسلامى الذى خضع للنير التركى. ولكن هذا الغزو التركى كان له فى أوربا المسيحية نتيجة هى النقيض من هذه. نتيجة محسنة آذنت بانتقال مد الحضارة إلى الغرب بمقدار ما كان من طردها فى الشرق الإسلامى ، وكانت مقدمة البعث الأوربى والحضارة الغربية الحاضرة.

ظهرت هذه النتيجة التى أثمرت الحضارة الغربية فى بطء وأناة وبعد جهود شاقة ونضال عنيف عشرات السنين بل مئاتها. كان الجيل يعقب الجيل ، وفى كل جيل يبدو من هذه الثمرة أثر جديد ، وفى هذه الأثناء كانت الإمبراطورية التركية ينفسح مدى سلطانها الحربى ليزيد الأمم

الإسلامية جموداً وركوداً . فلما آن للغرب أن يسترد – باسترداده الحرية الإنسانية – مكانته ، اتجه إلى هذه الإمبراطورية التركية يريد أن ينتقم منها لنفسه ، كما وجه الغزوات الصليبية من قبل إلى أمم الإسلام لينتقم منها . وحاولت أوربا بعد الحرب الكبرى أن تقضي القضاء الأخير على الرجل المريض ، وألقى اللورد اللنبي تصريحه بأن الحروب الصليبية انتهت . يريد بذلك أن المسيحية انتقمت لنفسها انتقاماً حاسماً من الإسلام . وتلك لعمرى سخرية من القدر مُرَّة . فلو أن شيئاً أسمه الأعتراف بالجميل كانت تعرفه العلاقات الدولية لذكرت أوربا للترك فضلها الأول فى القضاء على الدول الإسلامية بالجمود ، وفى تمهيد الطريق للبعث الأوربى وللحضارة الغربية الحاضرة . لكن الحياة الدولية لا تعرف هذه المعانى إلا بمقدار ما تعاون هذه الحياة . فإن هى وقفت فى سبيلها حطمتها وداستها وتخطتها إلى ما هو خليق بمزيد فى الحياة .

كيف أدى الغزو التركى إلى بعث أوربا وإلى الحضارة الغربية الحاكمة اليوم فى الشرق والغرب ؟ ! وكيف اضمحلت دول الشرق حتى خضعت كلها لنير أوربا ؟ ! وهل اضطلعت الحضارة الغربية برسالة خاصة تتجه بالإنسانية نحو كمالها وسعادتها ؟ ! وماذا كان موقف الشرق من الغرب فى هذه الظروف المختلفة ؟ وما موقفه اليوم ؟ ! . . .

٢ – إبان البعث الأوربى

تقدم الأتراك فى أواسط آسيا فغزوا البلاد الواقعة فى طريقهم حتى اقتحم « محمد الفاتح » القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ ، وتقدم خلفاؤه إلى أسوار فيينا . ووقفت أوربا فى وجه هؤلاء المسلمين الفاتحين مستأنية خائفة على مصير المسيحية . واتجه الأتراك بغزواتهم وبفتحهم إلى البلاد الإسلامية فتقدموا إلى الشام وإلى مصر ، وتم للسلطان « سليم » وضع يده على القاهرة فى سنة ١٥١٧ . وبديهى – وللأتراك من الملكات الحربية مالهم ودينهم الإسلام – أن يحملوا أهل بيزنطة على اعتناق هذا الدين ، وكان من أثر ذلك أن هاجر العلماء والكتاب المسيحيون المقيمون فى شبه جزيرة البلقان وفى اليونان إلى روما وإلى بلاد أوربا المسيحية المجاورة للبلاد التى غزاها الأتراك وفتحوها وعملوا على أن تعلو فيها كلمة الإسلام .

وقفت أوربا مبهوتة إزاء هذا الفتح الجديد ، وجعلت تفكر فى هذا الماضى الذى حاولت فيه عبثاً أن تسترد الأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وفى هذا الغزو الجديد الذى أعاد إلى الذاكرة غزو العرب بلاد الأندلس : فليس طبيعيًّا أن تتعرض أوربا لكل هذا الغزو وكانت إلى الأمس القريب بمأمن من غائلة الشرق وكانت خلال القرون المسيحية الأولى صاحبة مجد الحضارة فى العالم كله . لقد مدت روما فى العصور التى سبقت المسيحية والتى تلتها إمبراطوريتها المترامية الأطراف إلى الجزء الأكبر من أقطار العالم المعروف يومئذ ، كانت أعلام « قيصر » تخفق

فى مصر ، وكانت جنوده تخترق أوربا إلى إنجلترا . فلما دالت دولة روما قامت بيزنطة مقامها رافعة شأن المسيحية مقيمة فى مختلف الدول علم حضارتها الخفاق . وظلت أوربا من بعد ذلك تشن الغارات الصليبية على دول الإسلام غارة بعد غارة . فماذا أصابها حتى أصبحت مهددة كل هذا التهديد بأن تذل للمسلمين ، وبأن تذل للأتراك القادمين من ظلمات آسيا . فكر أهل أوربا يومئذ فى ذلك وأخذوا أنفسهم بالبحث عن أسبابه ووسائل التغلب على هذه الأسباب . وكانت لهم فى هجرة العلماء الذين أجلاهم الغزو التركى عن بيزنطة إلى روما وإلى أوربا الوسطى ما يكفل دقة هذا البحث وما يمهد فى نفس الوقت إلى مقدمات البعث الأوربى الذى تمخضت عنه أوربا بعد مائة سنة أو ما دونها من اقتحام الأتراك المسلمين عاصمة المسيحية يومذاك .

وفى طبائع الناس أن يتساءلوا فى مثل هذا الموقف عما إذا لم يكن للدين الذى يدينون به تبعة عن المآل الذى هووا إليه . وكان مثل هذا التساؤل محتوماً يومئذ أن كان تبادل الغزو قائماً بين المسيحية والإسلام وأن كان للإسلام الفوز والغلب . وفى طبائع الناس إذا ألقوا مثل هذا السؤال أن يلهمهم الحق بالإجابة عنه بالنفى .

إن الدين الذى كان يوماً سبب الرفعة والفوز والغلب لا يمكن أن يكون هو بذاته سبب التدهور والانحلال والهزيمة . فإن يكن على عقائد الناس فى تضعضع عزائمهم وخور نفوسهم تبعة ، فلا بد قد اندس إلى هذه العقائد باسم الدين ما ليس من الدين ، وما أفسد العقائد وزعزع الإيمان الصحيح فى النفوس . فهل حدث من ذلك شىء فى المسيحية ؟ ! وإن يكن قد حدث فما عساه يكون ؟

طرح مفكرو أوربا فى القرن الخامس عشر على أنفسهم هذا السؤال ، وبحثوا يلتمسون الجواب . وليس العثور على الجواب فى مثل هذه الظروف ميسوراً . فرجال الدين الذين يوجه إليهم هذا الاتهام لا يذرون عندئذ فرصة إلا انتهزوها للقضاء على خصومهم . ورجال الدين من أهل الكنيسة المسيحية كان لهم من السلطان المطلق ما رأيت مجمل صورته فى الفصل السابق ، ولم يقف سلطانهم عند وضع يدهم على إرادة الناس وعلى تفكيرهم . بل امتد إلى المغفرة للمذنب ومحو خطيئة المخطئ ، ولم يكن هذا الغفران حرصاً منهم على ألا يعود المخطئ إلى خطيئته . فقد كانت براءات الغفران تباع يومئذ وتفيد الكنيسة منها أموالاً طائلة . إذن فقد أنقلب الدين وسيلة للوصول إلى المال وأصبحت الكنيسة تقتضى المال بهذه الوسائل الخاطئة باسم الرب وباسم « المسيح » فتزيد فى سلطانها المادى ابتغاء الغلب فى هذه الحياة الدنيا . تحدث العلماء فى هذا وأنكروه فيما بينهم على الكنيسة من غير أن يجترئ واحد منهم على التظاهر فى وجهها مخافة أن تحطمه قوة سلطانها . كانت للكنيسة تصرفات غير قليلة تشبه بيع براءات الغفران ، وإن لم يكن منها ما تبدو مخالفته للعقل بديهية بداهة بيع هذه البراءات . وتزايد حديث العلماء فيما بينهم وألقوا على الكنيسة تبعات ما تنوء به أوربا من تدهور ، حتى قيض الله رجلاً من رجال الدين يحمل كلمة العلماء هذه ويلقى بها فى وجه زملائه ، ذلك « مارتن لوثر » . من يومئذ بدأت الثورة على الكنيسة وتعاليمها . ومن يومئذ بدأت الكنيسة تشعر بقوة هذه الضربة الموجهة إلى سلطانها المطلق شعوراً جعلها تحاول القضاء عليها فى مهدها — وقد سلكت لذلك مختلف السبل حتى نزلت إلى ألوان من المهاترة ؛ منها أن اتهمت لوثر فى نزاهته وألقت عليه أنه إنما قام فى وجهها لأنه يريد أن

يخرج كقسيس على تعاليم الدين التى تحظر الزواج على القسس وتسمو بهم عن حب المرأة وإلى تكريس كل حبهم للسيد « المسيح » ، وأن الشيطان الذى زين له حب المرأة وأغراه بالزواج هو الذى دفعه ليرفع عقيرته فى وجه براءات الغفران وهى وسائل طمأنينة وسعادة للمسيحيين جميعاً . ولكن صيحة لوثر لقيت فى كثير من أنحاء البلاد المسيحية صدى قوياً ، لأنها كانت تعبر عما يجول بالنفوس وتكاد تفيض به القلوب على الخواطر بل على الألسن . صحيح أن الناس وقفوا باهتين إزاء هذه الجرأة التى لم تكن معروفة من قبل . لكن ذلك إنما كان بقية مما صور الوهم لنفوسهم من سلطان الكنيسة القاهر فى الأرض وفى السماء . فإذا كان هذا السلطان لا ينال من « لوثر » بأكثر من توجيه تهم لا دليل عليها فقد آن للناس أن يفيقوا من غفلتهم ، وأن يطرحوا كابوس الوهم الذى أثقلهم ، وأن يزداد الصدى الذى تتجاوب به أنحاء المسيحية لصيحة لوثر سلطاناً وقوة . وكذلك أعلنت الثورة على الكنيسة وأعلنت على الجمود الذى قيدت الكنيسة به العقول والقلوب ، وكذلك امتدت هذه الثورة من براءات الغفران إلى سائر مقررات الكنيسة مما لا يطمئن إليه العقل ، وكذلك بدأت قيود العقل تحطم رويداً رويداً ، وبدأ « كالفن » فى سويسرا و« چون نوكس » فى إنجلترا يعلنان الثورة التى أعلنها لوثر وينابيان وإياه بأن الدين لا يمكن أن يناهض العقل . وأن ما خالف العقل ، من مقررات الكنيسة ، لا بد أن يكون خارجاً على الدين . وبذلك انتشرت ثورة الإصلاح الدينى فى نواحى أوربا المختلفة انتشاراً اضطر كنيسة روما إلى التفكير فى موقفها وإلى إعادة النظر فى كثير من مقرراتها .

لم تكن هذه الثورة من « لوثر » و« كالفن » و« نوكس » ثورة على

الدين ، بل كانت كما رأيت ثورة من طائفة من رجال الدين على الكنيسة ومقرراتها . وبعبارة أدق كانت ثورة من الاجتهاد الديني على التقليد الجامد في الدين ، وكانت ثورة العقل المقيد على قيوده . ولم يكن طبيعياً أن تقوم يومئذ ثورة على الدين كالثورة التي قامت من بعد بزعامة « فولتير » وبزعامة أساطين العلم الواقعي من بعده . فإلى يومئذ كان سلطان الدين يتناول كل شيء ، وكان العلم بعض ما يتناول . ذلك بأن الإنسان لم يكن قد فصل بين الدين والعلم على نحو ما فعلت أوربا من بعد — حين أوقفت الإنسان من الوجود موقف الخارج عنه المشاهد إياه يلاحظه ويستنبط من ملاحظاته قوانينه . بل كان الإنسان ما يزال يشعر بنفسه قسماً غير منفصل من الوجود متأثراً به أكثر من تأثيره فيه ، فلم يكن له من أجل ذلك بدٌّ من أن يطمئن إلى موقفه منه بين أزله وأبده . لذلك تجاور العلم والدين في النفس الإنسانية ، ولذلك كان بين العلم والدين من التعاون والتضامن ما رأى الإنسان ضرورته لسعادته في هذه الحياة الدنيا وفيما بعدها . على أن علم الإنسان كان يومئذ محدوداً ، وكانت معارفه قليلة لا تكفي لتنير له سبيل الحياة ولتزيده عليها قوة ، فلم يكن بد إذن من طمأنينة الإنسانية إلى الإيمان لتقوى به على الحياة وتهتدي به إلى الخير والنعمة فيها . ولذلك ظل الأمر لرجال الدين بعد ثورة الإصلاح كما كان لهم قبلها ، وإن نشبت بينهم أسباب من الخصومة بل العداوة مهدت للمفكرين من غير رجال الدين أن يشقوا لأنفسهم طريقاً يصل بهم إلى صفوف الإنسانية الأولى ، ويسمح لهم بمشاركة رجال الدين في توجيه الناس في الحياة ، ويمكنهم بذلك من مشاركة رجال الدين في السيطرة على الناس ، وفي تولي زمامهم ، وفي القيام منهم في مناصب الحكم .

لم يوفق بعض هؤلاء المفكرين إلى بلوغ المكانة التى قصدوا إليها . فقد نادى بعضهم بأمور تخالف مقررات الكنيسة من غير أن تكون بديهية لدى العقل . فالأرض كروية أو مسطحة ، وهل هى تدور حول الشمس أو أن الشمس هى التى تدور حولها . هذه وأمثالها من المعارف التى أصبح الواقع منها فى حكم البديهيات أمام نظرنا كان ما قرره العلماء منها مخالفاً لما قررت الكنيسة ، لذلك لقى هؤلاء العلماء – كما لقى المتشككة – عنتاً من جانب الكنيسة لم يثر رجال الدين ، ولم يثر الرأى العام فى وجهه لأنه كان بمثابة الدفاع عن الحقائق المقررة . وللحقائق المقررة مكانتها من النفوس ؛ فهى تميل أبداً إلى الاطمئنان إليها وتنظر شزراً لمن يخالفها أو يحاول نقضها حتى تستقر مكانها حقيقة غيرها تطمئن الجماعة لها وتؤمن بها ، ولم يكن رجال الدين وحدهم هم الذين حاربوا هذه الحقائق الجديدة . بل ازورّ كذلك عن تأييدها جماعة المفكرين من غير رجال الدين ممن لم يعنُّوا أنفسهم بتمحيصها . هؤلاء المفكرون هم جماعةالتجريديين – الميتافيزيقيين – الذين جعلوا منطق العقل وحده وسيلة الوصول إلى ما سموه الحقيقة المطلقة . وهؤلاء كانوا يرون حقاً ما أقره العقل وإن أعوزه الدليل المحسوس ، وكانوا يرون ما نفاه العقل وإن أيدته الكنيسة مفتقراً إلى الدليل كى يثبته . وواسطة العقل فى التدليل المنطق . لذلك كان المنطق أداتهم الأساسية لإقامة الدليل .

كان الكثيرون من هؤلاء المفكرين من غير رجال الدين مؤمنين إيماناً صادقاً . لذلك اعتمد رجال الدين عليهم وعلى أداتهم فى البحث والتدليل أزماناً طويلة . وزاد الخلاف بين رجال الدين ونحلهم المختلفة فى ظل هؤلاء المفكرين الذين كانوا يؤيد بعضهم ديناً بعينه ، ويؤيد

البعض الإيمان بالله وبالروح وخلودها وبالبعث والحساب . وتطلعت الصفوة من أهل كل أمة إلى ناحية هؤلاء المفكرين والفلاسفة على أنهم الأمل المرجو للمستقبل بعد أن بدأ سلطان الكنيسة يذوى ويتوارى ، وبذلك نهضت الفلسفة التجريدية نهضة قوية أدت إلى تقدم التفكير وإلى اقتحامه مختلف الميادين ، وإلى ملاحظة المفكرين الواقع المحسوس وإلى استنباطهم الأدلة منه ، وإلى تمهيدهم بذلك العلم الواقعى الذى كان موقوفاً إلى ذلك الحين على خدمة الدين والفلسفة .

كانت هذه النهضة فى التفكير نتيجة محتومة للإصلاح الدينى . وكانت قائمة على أساس ما نقله العلماء الذين أجلاهم الأتراك عن بيزنطة من منطق اليونان وفلسفتها وحكمتها . وقد أدت النهضة الفكرية إلى إطلاق حرية العقل فى ميادين أخرى مختلفة نشأت عنها نهضات تأثرت هى الأخرى بالثقافة اليونانية ، أول هذه النهضة الأدبية . فقد قام « شكسبير » وقام من بعده « ملتن » فى إنجلترا ، كما قام « راسين » و« كورنى » فى فرنسا ، يثيرون فى شعر بالغ غاية القوة والجمال صوراً وعواطف دينية وإنسانية كان التغنى بها من قبل يعتبر هرطقة وتجديفاً . وإلى جانب النهضة الأدبية قامت فى الفن نهضة قوية بدأت فى إيطاليا ثم امتدت منها إلى بلاد أوربا المختلفة . وكذلك حطمت أوربا قيد الحرية الإنسانية التى كبلتها به الكنيسة عصوراً طويلة باسم الدين ، ففتح باب الاجتهاد أمام التفكير وأمام الفن والأدب ، وفتح باب الاجتهاد فى الدين نفسه بعد أن ظل مغلقاً أجيالاً وعشرات الأجيال .

بينما كانت أوربا تنهض هذه النهضة تاركة حروبها الصليبية العقيمة جانباً ، مستقلة بنفسها وباصلاح طرائق تفكيرها ، وباطلاق الحرية

من قيودها ، كانت صفائح الجمود تزداد فى الشرق كثافة وتحجراً . وبينما كان المفكرون والعلماء ورجال الأدب ورجال الفن فى الغرب تأخذ كل طائفة منهم بيد صاحبتها لتزيد فى حريتها فتزيد بذلك فى نتاجها ، كان الفن والأدب والعلم والتفكير يصفَّد فى الشرق وفى الدول الإسلامية ليضع رجال الدين يدهم على كل ذلك وليزيدوا فى القيود الجامدة التى لا يجوز تخطيها أوالتفكير على نحو غيرها . وأيد الخلفاء من بنى عثمان فى تركيا وفى سائر أنحاء الإمبراطورية الإسلامية هذه القيود الجامدة ، وأسبغوا عليها باسم الخلافة طابعاً دينياً لا يجوز لإنسان أن يناقشه أو أن يضع جليله أوحقيره موضع البحث ، ولم يجد رجال الدين ولا وجد الخلفاء يومئذ عنتاً فيما صنعوا من ذلك . فنظام الحكم الإسلامى الذى انتقل من الشورى على ما وصفها « أبو بكر» إلى الأوتقراطية المطلقة ، ومن وكالة الخليفة عن المسلمين إلى استبداده بهم واعتباره نفسه وكيل الله عليهم وكلمة الله فيهم ، قد تدرج فى ذلك من الخلافة إلى الملك العضود فى عهد بنى أمية إلى وكالة الخليفة عن الله وكالة وصفها « المنصور» العباسى بقوله : « أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ؛ وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، جعلنى الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى » . وقد نشأ عن هذا التدرج أن صارت الدولة الإسلامية محكومة منذ عهد العباسيين بنظام استبدادى طوع للفتح والغلب فى أيام الخلفاء الراشدين منهم كما حدث فى عهد « الرشيد » و « المأمون » ، كما مهد للفتنة والاضطراب مما حدث أيام « المستنصر» وجماعة الذين خلفوه ممن انتهت بهم الدولة العباسية ومن مهدوا للجمود وللتأخر . من ذلك الوقت أسبغت

النظرية الاستبدادية على الملك والسلطان جلالاً كجلال الله ، وجعلت للخليفة عرشاً كعرش الله ، واستمدت له قداسة روحية من أمر الله . ولم يكن الملوك ولا كان الخلفاء هم الذين صوروا عرشهم واستمدوا من الله استبدادهم ، وإنما صور لهم هذا العرش واستمد لهم هذا الاستبداد جماعة الفقهاء والمتكلمين الذين التمسوا من وراء ذلك الإفتاء عطف صاحب السلطان واقتناص الجاه والمال مما يجود به على المنافقين من حوله ، وليظل هذا الاستبداد آمناً مطمئناً لم ير الفقهاء بدأً من أن يمكنوا له فى النفوس بأن يلبسوه لباس الدين . وليزيدوا فى أمن الاستبداد وطمأنينته رأوا تقليل الإرادة الإنسانية وتكبيل العقل الإنسانى والعاطفة الإنسانية . لذلك نشطوا يضعون القواعد ، وينظمون حياة الأفراد فى كل كبيرة وصغيرة ، ويرتبون الجزاء على مخالفة هذا النظام ويسندون ما يقررون من ذلك كله إلى الدين ، ويجعلونه بعض ما أتى الرسول به الناس ، وبعض ما نهاهم عنه ، ويشيرون إلى أن ما قرروا للسلطان من حق الجزاء فى هذه الدنيا لا ينفى ما يجزى به الإنسان فى الآخرة ويصورون هذا الجزاء فى الآخرة تصويراً فيه من الدقة المادية ما فى تصويرهم للجزاء الذى يوقع فى هذه الحياة . وهم فيما قاموا به من ذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان وسلوكه ، مما يجيش بخاطره ويحس به بينه وبين نفسه إلا نظموها . فكيف يأكل الإنسان ، وكيف يشرب ، وكيف يستحم ، وكيف يتعاشر مع غيره ، وكيف يؤدى التحية وكيف يردها وكيف يقوّم وكيف ينام وكيف يعامل أهله فى بيته — كل ذلك نظّم أدق نظام ، ورتّب على مخالفته الجزاء ، وأنت تستطيع أن تذكر أى شىء مما فى الحياة وتجاربها سواء بين الإنسان وبين نفسه ، أو بينه وبين أهله ، أو بينه وبين المجموع ،

وبين الشيطان ، أو بينه وبين الله ، تستطيع أن تذكر أى شيء من هذا لتراه قد نوقش وبحث واستمدت له القواعد والأحكام من القرآن ، فإن لم توجد فى القرآن فمن الحديث ، فإن لم توجد فى الحديث فمن السنة ، فإن لم توجد فى السنة فمن الإجماع ، فإن لم توجد فى الإجماع فمن القياس . واستمر النشاط فى هذا السبيل عصوراً متوالية كان يقوم أثناءها الحين بعد الحين مجتهد لا يعنى كثيراً بهوى صاحب السلطان فيقرر ما يراه حكم الدين الحق دون أن يخشى قيام الفقهاء الرسميين عليه ورميهم إياه بالمروق والزندقة والإلحاد . فلما بدأت عصور الانحلال بانحلال الدولة العباسية وكثرت الفرق خيف أن يقوم من بينها من يحاول هدم المذهب الرسمى من ناحية ، وخيف من ناحية أخرى أن يقوم داع يهز فى النفوس الكرامة الإنسانية واحترام الذات وتحريم العبادة لغير الله ، فيدعو بذلك إلى الانتقاض على سلطان واه مزعزع ما أيسر ما تعبث به هزات النفوس . لذلك قام جماعة من أولئك الفقهاء الذين وصفنا فنادوا بأن الشعوذة فشت باسم الاجتهاد وأن أفكار الرفض والإلحاد تروج تحت ستاره وقرروا لذلك إقفال باب الاجتهاد وضرورة تقليد السلف والأخذ بأحكامهم ، واعتبروا كل خارج على هذه الأحكام مارقاً كافراً جزاؤه جزاء من ارتد عن دينه ومثواه فى رأيهم جهنم وبئس القرار .

كانت النفوس فى هذه البلاد الإسلامية قد انحلت يومئذ فسكنت إلى هذا القرار ولم تثر عليه . وظل الأمر كذلك حتى جاء الأتراك فحكموا العالم الإسلامى واتخذوا من فقهاء المسلمين بطانة يزيدون فى أغلال العقول وأصفاد القلوب . ولعل الإنصاف يقضى بألا نحملهم من تبعة ذلك كثيراً ، فهم لم يكونوا يعرفون روح الإسلام الصحيحة ، لأنهم لم يكونوا يعرفون

لغته ، ولم يكونوا لذلك قادرين على إدراك أسراره . ولئن كان من بينهم علماء حاولوا معرفة أسرار الدين فأولئك قد عرفوها فى كتب التدهور والجمود وكانوا بطبيعتهم الحربية وبطبيعة البيئة التى أنبتتهم والمعارف المبعثرة التى سعوا بها لفهم الدين – ميالين لتصديق كل ما كان خارجاً على الطبيعة سامياً فوق العقول . إنما التبعة على فقهاء المسلمين الذين باعوا علمهم للأتراك ، والذين انحط إدراكهم حتى صاروا يرون فى كل جديد إلحاداً ومروقاً ، وصاروا يحرصون على الجمود أشد الحرص ويرون فى القضاء على كل اجتهاد رحمة من الله بعباده ويصفّدون الشعوب الإسلامية حتى يصبح التقليد التام الأعمى أساس حياتها فى نظام حكمها وفى شريعتها وفى أخلاقها وفى آداب مجتمعها ، وفى طرائق تفكيرها ، وفى معالجتها العظيم والحقير والجليل والتافه من كل شؤون الحياة .

مع هذا التدهور فى العقيدة وفى التفكير ومع تصفيد الحرية بالأغلال الثقال ، ومع خضوع العالم الإسلامى لنير الترك خضوعاً أعمى فى العصور التى كانت أوربا تتحرر خلالها من سلطان الكنيسة وتنزع فيها إلى تحكيم العقل وتقوم فيها نهضات زاهرة للأدب والفن والفلسفة وسائر صور التفكير والإحساس – مع هذا كله ظلت الدولة الإسلامية محتفظة بمركزها ، وظلت أوربا فى شغل بنفسها عن التفكير فى غزو صليبى وفى غزو جديد أيًّا كان نوعه . ويرجع ذلك إلى اعتبارات عدة ؛ فملكات الأتراك العسكرية ، ومجدهم الحربى كانت تبعث الرعب إلى النفوس وتصد عن التفكير فى غزو البلاد الإسلامية المستظلة كلها أو أكثرها يومئذ بالعلم التركى . فلم تنس أوربا تقدم الجيوش التركية ظافرة إلى أسوار عاصمة النمسا وتهديدها ڤيينا وتهديدها أوربا بأسرها . والدول لا تنظر بعضها إلى بعض ولا ترتب

علاقات بينها على أساس تقدم العلم والحضارة أو تأخرهما فيها ، وإنما ترتب هذه العلاقات على أساس القوة الحربية المادية . وإذا لم يكن فى ذلك شىء تفاخر به الإنسانية أو تعتبره سبباً لمجدها فإنه لسوء الحظ هو الذى كان واقعاً يومئذ ولا يزال الواقع اليوم . ثم إن أوربا كانت فى شغل بنفسها وبالاضطرابات الدينية والسياسية الداخلية التى لم يكن منها مفر بسبب تطور العقلية الأوربية هذا التطور السريع الذى وصفنا . وليس من شأن الإنسان — حين شغله بنفسه وباضطراب أموره الخاصة — أن يفكر فى مهاجمة غيره وفى غزوه . وبخاصة إذا كان هذا الغير مخشىّ الأيد مرهوب الجانب . والدولة الإسلامية كانت محتفظة بمركز القيادة يومئذ فى العالم ، كما كان مركز التجارة والرخاء الاقتصادى بين المسلمين . يضاف إلى ذلك أن اكتشاف كولمبوس لأمريكا فتح أمام أوربا ميادين للاستعمار خفت إليها إسبانيا فوجهت نظر غيرها من الدول الأوربية إلى ناحيتها . ولم يكن الهنود الحمر من سكان أمريكا ليخيفوا أوربا ما تخيفهم الدول الإسلامية التى وقفت حائلاً بينهم وبين آسيا ، والتى أرتهم من الصلابة إبان الحروب الصليبية ومن البأس حين اقتحام الأتراك أوربا ، ما لم يروا بعد شيئاً منه فى أمريكا . فإذا كانت الدولة الإسلامية يدب إليها دبيب الفساد وتجرى مسرعة فى سبيل الانحلال فإن هالة ماضيها أقامت حولها سياجاً من وهم صد أوربا عن التفكير فى مهاجمتها وغزوها .

وقد يكون هذا عجيباً . لكن الأعجب منه أن الدولة الإسلامية بقيت بمعزل عن الثورة القوية القائمة فى أوربا تحطم القيود وتهيئ للحرية الفكاك من إسارها ، وكأنما بين الشرق والغرب أسوار من حديد تحجب هذه الحركة عن أنظار الشرق لتدعه يغط عشرات السنين ومئاتها فى سباته

وكأنه لا يصل إليه شيء من علم المجازر التى تحدث باسم الدين وباسم الإصلاح فى أوربا . أو كأنه فى سعادته بجموده ينظر إلى هذه الحركة على أنها طيش جنونى غير لائق بهذا الشرق العريق فى مجده العريق فى حضارته ، أن يأبه لها أو أن يفكر فيها . وأدعى للعجب أن تكون الغزوات الصليبية قد فتحت عيون أهل أوربا المسيحية على كثير مما فى الشرق ، وقد دعت هؤلاء المسيحيين إلى التفكير فيه فكان إلى جانب غزو الأتراك أوربا وهجرة العلماء المسيحيين من بيزنطة إلى الدول التى تجاورها بعض ما أسرع بأوربا إلى بعثها . أما الشرق فظل فى سكينته الجامدة ، بل ظل يزيد فى هذه السكينة جموداً . وأنت تستطيع أن ترى ذلك وأن تلمحه مجسماً فى كتب المتأخرين من متكلمى الشرق وفقهائه ممن سخروا ملكاتهم لخدمة الخليفة العثمانى حيثما كانوا من نواحى الإمبراطورية العثمانية . فقد بلغ من جمود التفكير فى تلك العصور أن حصر العقل فى حدود أنانية ضيقة ترتب عليها إبراز الفكرة غير المحدودة بطبعها فى صورة شيء مادّى محدود ككل محسوس مادى ، لا على أنها صورة ذهنية فى طبعها التمدد فى لانهايات المكان والزمان . تمدداً هو وحده الكفيل لها أن تثمر كل آثارها . وأنت إن رجعت إلى كتب فقهاء تلك العصور رأيت هذه المادية الوثنية صريحة واضحة ممتدة إلى كل ما يحتمل التحديد ولا يحتمل التصوير المادى ، بل ممتدة إلى الروح وإلى خالق الكون – تعالى خالق الكون عما يصفون – فى هذه الكتب ترى وصفاً مادياً للعرش وتصويراً مادياً للملائكة الحافين من حوله ، وذكراً مادياً للألفاظ التى تخرج من أفواههم فى التسبيح بحمد الله وفى تقديسه . وهذا الوصف والتصوير المادى هما فى الإسلام الصحيح وثنية لا ريب وتحريف . وإذا تناولت المادة تصوير

العرش والملائكة وتسبيحهم فأجدر بها أن تتناول الرسل والأنبياء وصفاتهم وحياتهم . وقد فعلت ، فمما تحدثت فيه ما إذا كان الرسل بعد موتهم عليهم السلام يحيون فى القبر حياة مادية يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ، وتناولت المادية الشمس وما إذا كانت ساعة مغيبها تختبئ تحت عرش الله العظيم حتى يؤذن لها أن تشرق فى الصباح . وإنك لتقرأ فى سير الأنبياء التى كتبت إلا تلك العصور ما ترى أثر المادية فيه واضحاً إلى حد لا تستطيع معه دون الابتسام ازدراء بهم وإشفاقاً عليهم . ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال فى هذا وفى مقدور من شاء أن يطلع على ما كتب من السير فى تلك العصور ويلمس فيها من هذا السخف المادى ما تنزهت عنه السير التى كتبت فى عصور أقرب إلى عصور أولئك النبيين ، وحين كانت تلك السير ما تزال فى صفائها الأول أو ما تزال قريبة كل القرب منه .

إذا انحدرت النفس الإنسانية إلى هذه الهاوية من التصور المادى ونظرت إلى العالم على أنه آلة ، لا على أنه فكرة ضاق نطاق التفكير أمامها وأجمعت أنبل عواطفها ، وخمد صوت الضمير فيها ، وتداعت المعانى الإنسانية السامية جميعاً أمامها وتحركت فى أعماقها السلائق الحيوانية الصرفة ثم تحكمت فيها ووجهتها فى كل مشاعرها وكل تصرفاتها . وذلك ما حدث أو ذلك ما كان أثراً محتوماً لها ، ظل علماء المسلمين يعلمون الناس قروناً طوالا وجوب الإذعان إلى من تولى الأمر سواء أكانت ولايته الأمر شرعية أم مغتصبة . ولقد دفعت السلائق الحيوانية إلى هذه النفوس الإنسانية التى فقدت كل معنى إنسانى أحط الأخلاق وأسفلها . دفعت إليها الكذب والنفاق والتحايل لاتقاء غضب كل ذى سلطان ، ولاتقاء غضب الحاكم ، ولاتقاء غضب الله معتبرة إياه جل شأنه وكأنه

حاكم من الحكام أو رئيس من الرؤساء . وعاون العلماء والفقهاء على نمو هذه الأخلاق الوضيعة فى النفوس بما جعلوا يصدرون من الحيل الشرعية التى يتحايل بها المسلم على أحكام القرآن وعلى أوامر الدين ثم يكون من جزاء الله بمنجاة ، كأنما الله ليس بمطلع على الغيب وعلى ما تخفى الأنفس وعلى خائنة الأعين . وافتنت طائفة من الفقهاء فى تصوير هذه الحيل ، ووصلت من طريق هذه الفتاوى التى تصدرها فى شأنها إلى ما تصبو إليه من رخاء مادى وإلى حظ عظيم من متاع هذه الحياة الدنيا متاع الغرور . وإذا ساغ للنفس أن تتخذ الحيلة وسيلة إلى الله وأن تتوجه إليه بالنفاق وبالكذب فما عسى يقف أمامها فى التوجه إلى الحاكم وإلى صاحب السلطان ، وما عسى يقف أمامها فى بلوغ غايتها أياً كانت هذه الغايات ؟ ! ! وما دام صوت الضمير قد جمد فقد آن للرذيلة أن تلبس ثوب الفضيلة ، آن لكل نقص وفساد أن يجد ما يبرره ، بل ما يصوره كمالاً وخيراً . ولا شىء أفتك بحياة الشعوب من أن تنقلب عندها المقاييس الصحيحة للحق والفضل . ولا شىء أدعى إلى انحلال الأمم وإلى أن تدول الدول من تحكم السلائق الحيوانية فى الإنسان تحكماً يهوى بملكاته العليا إلى الحضيض فيسلك من أجل ذلك طريق الضلال .

وفيما كان هذا التدهور يستشرى فى شعوب الشرق الإسلامى كانت نهضة أوربا العقلية والأدبية والفنية سائرة فى طريقها لا تفتر ولا تنى ولا تعرف هوادة أو تواكلاً . وكان أعظم ما عنى به القائمون بهذه النهضة معرفة الطريقة الصحيحة فى التفكير ؛ الطريقة التى تهدى إلى الحق وتصل بالإنسان إلى حسن إدراكه . وإذا كانت ثورة لوثر ومن سار فى طريقه قد بدأت تحطم سلطان الكنيسة المطلق وتعترف للعقل بحقه فى أن يفكر مستقلاً

ليصل إلى معرفة الله وما أمر به ونهى عنه ، ثم كانت نهضة الفلسفة التجريدية قد قامت فى أثر ذلك تبغى لإثبات الحقائق المقررة طريق المنطق غير المقيد إلا بحكم العقل ، فقد آن للتفكير الغربى أن يخطو خطوة جديدة إلى إباحة العلم الواقعى . وقد مهد لهذه الخطوة ما قام بين الفلاسفة التجريديين من نزاع يشبه بعض الشىء ذلك النزاع الذى قام منذ قرن أو نحوه بين رجال الدين . نزاع اشترك فيه رجال الدين أنفسهم لأنهم رأوا فى تقدم الفلاسفة إلى الصف الأول من صفوف الجماعة الأوربية ما كاد يقضى على قوتهم ويدك سلطانهم وينتزع منهم ما كان باقياً بين أيديهم من أعنة الحكم . اختلف الفلاسفة أن كان من بينهم ملاحدة ينكرون الدين وينكرون الوحى وينكر بعضهم وجود الله وحسابه ، ولكنه يعمل ليحل الفلسفة فى النفوس محل الدين ويجعل لها سلطانه ؟ ولم يأبه رجال الدين بالملاحدة من الفلاسفة لأنهم رأوهم أبعد من أن يصلوا إلى نفوس الشعوب ليوجهوها وليأخذوا بزمامها ، فحاجة الشعوب إلى الإيمان حاجة طبيعية ملحة لا غناء للشعوب عنها كى تعيش . وحاجة الشعوب إلى الإيمان كحاجتها إلى الهواء وإلى الماء وإلى الغذاء . فإذا دعاها داع لتؤمن بأنها فى غير حاجة إلى الإيمان وأن الإيمان أكذوبة وضلال سخرت منه ورأته بعيداً عن الحقيقة بعد الذى يزعم لها أنها فى غير حاجة إلى الهواء أو إلى الماء : فأما الفلاسفة المؤمنون الذين أرادوا أن يحلوا الإيمان الفلسفى محل الإيمان الدينى فأولئك كانوا فى نظر رجال الدين مصدر الخطر . لذلك وجه رجال الدين قوتهم لمناهضة أمثال « ديكارت » و« روسو» وغيرهما من المؤمنين الذين يقيمون صروح الإيمان الفلسفى على قواعد يسيغها العقل وتطمئن لها النفس وتستهوى المجموع استهواء يجعله يؤيد هؤلاء الفلاسفة على حساب رجال

الدين . وأنت أقدر على قياس مدى الخطر الذى خشيت به الكنيسة المسيحية هؤلاء الفلاسفة إذا ذكرت أن «روسو» حاول أن يقيم ديناً جديداً يحله محل الأديان المقـــررة . فإذا ناهضت الكنيسة هـؤلاء الفلاسفة . وإذا هى استعدت عليهم سلطان الحاكم وغضب الجماعة ، وإذا هى حاربتهم بكل وسائل الحرب ، فلها من العذر أنها إنما تريد الاحتفاظ بسلطانها ، بل الاحتفاظ بحياتها .

واشتدت الحرب بين الفلسفة والكنيسة ، وازدادت المعركة أواراً وشدة . وألفى الفلاسفة أنفسهم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم موضع مهاجمة رجال الدين ، فلم يروا بداً من أن تتضافر جهودهم أثناء المعركة ، وأن تكون بينهم هدنة حتى إذا تم لهم الظفر بخصومهم عاد كل منهم إلى مناهضة رأى صاحبه . وفى سبيل النصر فضح الفلاسفة المؤمنون والفلاسفة الملحدون جميعاً مخازى الكثيرين من رجال الدين ، وأظهروا المجموع على شره هؤلاء وشهواتهم وحبهم المال ، وتهالكهم على الملاذ ، وحرمانهم المجموع من كثير من أسباب نعمته وسعادته ليتمتعوا هم بالنعمة والسعادة .

مهدت هذه المعركة إلى خطوة جديدة يخطوها التفكير الغربى نحو إباحة العلم الواقعى القائم على طريقة الملاحظة والمقارنة والاستنتاج لمعرفة سنن الكون الثابتة بالدليل المحسوس الممكن تحقيقه ، والذى لا يقبل لذلك خلافاً أو جدلا . وقد ظلت العلوم الوضعية قبل استقلالها فى خدمة التجريد زمناً طويلاً ، كما ظلت قبل ذلك زمناً طويلا فى خدمة اللاهوت . لكن الجدل العنيف بين الكنيسة والفلسفة جعل رجال العلوم الوضعية يأنفون أن يظلوا وأن تظل علومهم فى خدمة الفلسفة أو فى خدمة الكنيسة ودفعهم ليطبقوا طريقتهم على جميع فروع المعارف التى لم تكن

خاضعة من قبل لها ، كالمباحث النفسية والاجتماعية والاقتصادية والبحوث العقلية ، وزاد ذلك فى نشاط هؤلاء العلماء « لأوجست كنت » و « للامارك » من قبله فى فرنسا ، و « هربرت سبنسر » و « لدارون » من قبله فى إنجلترا ، و « لهكل » و « هجل » وغيرهم من العلماء فى ألمانيا أن ينبذوا كل مالا تثبته طريقتهم مما سبق إليه اللاهوت وسبق إليه التجريد ، وأن يعتبروا اللاهوت والتجريد حالتين من حالات العقل الإنسانى ممهدتين للحال العلمية التى اعتبرت فى نظرهم الصورة النهائية لما يجب أن تكون عليه مباحث العقل .

وقد غلا أنصار المذهب الواقعى ، والعلم الواقعى فى تقدير ما يستطيع العلم غلواً دفع « رينان » ودفع « تين » ، ودفع كثيرين غيرهما فى مختلف بلاد أوربا إلى الاعتقاد بأن العقل الإنسانى سيصل من طريق هذا العلم إلى معرفة سنن الكون جميعاً ، وإلى الكشف عن أسرار الوجود كشفاً مادياً يلمسه العقل الإنسانى ويقيم الدليل عليه ويحل بذلك ما كان يظنه الإنسان طلاسم لا سبيل إلى تلمس شىء من حقيقتها إلا بوحى الإلهام . وعلى أساس من هذا الاعتقاد قام الإيمان فى أوربا بأن الحضارة الإنسانية قد اطمأنت إلى الأساس الثابت الذى تقوم أبد الدهر عليه . أساس العلم الذى لا يعرف إلا ما أثبت العلم ، والذى يطرح كل ما لم يثبت العلم جانباً حتى يجىء دور إثباته . وبهذه العقيدة نظر رجال العلم هؤلاء إلى الفلسفة التجريدية وعلى ثغرهم ابتسامة إشفاق لهذه المجهودات الكثيرة التى أنفقت الإنسانية ظانة أنها تصل من طريقها إلى الحقيقة ، ثم إذا ما صنعت لا يزيد على مضاربة نظرية تقيم فروضاً وتهدم فروضاً ولا تقرر حقاً ثابتاً . ونظروا إلى الكلام وإلى الدين بأكثر من نظرة الإشفاق . نظروا إليه وإلى رجاله نظرة حقد وكراهية وإصرار على ألاّ يكون لهؤلاء

الرجال على الحياة من بعد سلطان . وكذلك اتفقت كلمة العلماء مع كلمة الفلاسفة فى شأن الدين ورجاله .

إلى أى مدى حقق العلم الواقعى آمال السابقين من رجاله ؟ ليس هذا الفصل موضع القول فى هذا ، لكن هذا العلم الواقعى قد بعث فى حياة الاختراع الصناعى روحاً قوياً ناشطاً جعل الناس يرون من آثارها كل يوم جديداً ، ودفع بها لذلك إلى الصف الأول من صفوف الحياة الاقتصادية ، ونفخ بذلك فى حياة الاقتصاد السياسى روحاً جديداً هو الآخر ، وأنزله من المعارف الإنسانية فى منزلة العلوم الواقعية مما أدى إلى تصوير المذاهب الاقتصادية تصويراً جديداً غير الذى كان معروفاً إلى يومئذ . ومن ثم أقام « جون ستوارت » المذهب الفردى يعارض به المذهب الفزيقراطى . ومن ثم نشطت المذاهب الاشتراكية حتى قام « ماركس » يضع مذهب الاشتراكية العلمية . ومن ثم لم تبق حضارة أوربا حضارة العلم وحده ، بل صارت حضارة العلم والصناعة جميعاً ، وقد كان لهذا التحول فى توجيه الحضارة آثار كثيرة مختلفة سنعرض لبعضها فى غضون هذا الكتاب .

وكان لهذا التطور فى طرائق التفكير الإنسانى من الأثر فى الأدب والفن مثلما كان له فى الصناعة . وقد أشرنا إلى نهضة الأدب والفن منذ بدأت ثورة الإصلاح الدينى ، ومنذ بدأ انتشار الثقافة اليونانية فى أوربا فى القرن السادس عشر . ولم تكن هذه النهضة أقل من نهضة طرائق التفكير نشاطاً ، وصارت النهضتان تؤثر واحدتهما فى الأخرى وتقضيان فى نفس المجموع الأوربى على ما كان من حصر دائرة العلم والأدب والفن فى حدود الكنيسة وما تشاء ، وتتناولان من شؤون الحياة كل ما

يكشف العلم عنه وتسبقان العلم فى أحيان كثيرة ، وتسبقانه أحياناً عشرات السنين بل مئاتها إلى تقرير حقائق تظل مفتقرة إلى الدليل العلمى ، وتظل منظوراً إليها من ناحية العلماء بعين الريبة ، ثم يقوم الدليل العلمى عليها وتصبح من مقررات العلم بعد أن كانت من مقررات الفن والأدب وحدهما .

طبيعى أن تتنفس هذه الثورات الدينية والأدبية والفنية والعلمية عن انقلاب جوهرى فى نظام الجماعة وفى طريقة حكمها ، وأن تتنفس لذلك عن ثورة أشد من كل هاته الثورات عنفاً . تلك هى الثورة السياسية ؛ فالنظام السياسى فى أمة ما ، هو التصوير العلمى لحياة الجماعة وكيف تسير ، وإنما يصدر هذا التصوير عن طريقة تفكير الجماعة ويتغير كلما تغير ما بنفسها وقد تغيرت نفس الجماعة على رجال الدين الذين استأثروا بالحكم أجيالاً لاعتراف الجماعة لهم أنهم يمثلون آمالها ومطامعها ، فخرج الحكم من يدهم وأوشك أن يخرج من يد الملوك الذين يؤيدهم رجال الدين ويزعمونهم خلفاء الله على الأرض . وقد قامت الثورة الدموية فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر فانتهت بإعدام لويس السادس عشر ونشرت الفلسفة ثم نشر العلم الأفكار الديمقراطية التى تجعل لكل شعب أن يحكم نفسه بنفسه ، فآمن بها الناس وضموها إلى العلم وإلى الصناعة على أنها أساس من أسس الحضارة التى أقاموا . وإذ كانت الديموقراطية لا تتحقق إلا حيث ينحصر الوطن فى حدود معينة ، وحيث تقوم لذلك فكرة القومية أصيلة فى النفوس للدفاع عن هذا الوطن ، فقد وطدت أوربا هذه الفكرة وجعلت القومية أساساً رابعاً من أسس تلك الحضارة .

ليس يدخل فى نطاق هذا البحث تفصيل هذه الأسس للحضارة الأوربية بأكثر مما سبق .ونحن إنما سقنا ما تقدم لأن أوربا التى عدلت عن

غزواتها الصليبية منذ غزو الأتراك إياها ، والتى أقامت داخل حدودها إبان تحريك الثورات التى أشرنا إليها أحشاءها قد بدأت منذ القرن الثامن عشر تزحف على الشرق وتزعم أنها تريد من هذا الزحف أن تقر الحضارة فى ربوعه ، وأنها تريد « تغريب » هذا الشرق – على حد تعبير الأستاذ « چب » فى كتاب (وجهة الإسلام) – فماذا فعلت لإقرار هذه الحضارة فى الشرق ؟ وإلى أى مدى وصلت من تغريبه ؟ وهل كان الشرق أول زحف الحضارة الأوربية الجديدة عليه مستعداً لحسن قبولها ، وماذا ثار فى أحشاء الشرق من رد الفعل إزاء هذه الحضارة ؟ أتراه أساغها وتمثلها ، أم فرضت عليه فأذعن لها ؟ وهل وصل ما تمثله منها إلى أعماق تفكيره ؟ إحضار هذه المباحث يحتاج تفصيلها إلى إفاضة طويلة لا متسع ها هنا لها لأنها تحتاج إلى مجلدات عدة ، لكننا سنلم بها جميعاً إلماماً لا بد منه لتصوير الشرق الجديد وما نريده أن يكون .

٣ – الحضارة الاستعمارية

ماذا فعلت أوربا لتظل الشرق بلواء حضارتها . . ؟ لقد رأينا هذه الحضارة تقوم على أسس من العلم والصناعة والديمقراطية والقومية فأى هذه الأسس اتخذت منه علم حضارتها ؟ وهل سلكت إلى نشرها سبيل الحضارات التى سبقتها ؟ أم اختطت لنفسها طريقاً جديداً ؟ وإن يكن ذلك فإلى أية غاية أدى الطريق الجديد بها ؟ !

جعلت الحضارات التى سبقت حضارة الغرب الأساس الفكرى والنفسى علم حضارتها ، فتاريخ المسيحية شاهد بأنها – وقد نشأت فى أحضان قوة روما المادية – إنما كان أساسها قوة روحية تحتقر المادة وتستهين بأذى أصحابها وتعتبر الثروة أكفل الوسائل لتورط الروح فى الخطيئة حتى ليكون دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى فى ملكوت الله . جعلت المسيحية من الفكرة الروحية أساس قوتها وأقامت النظام الفكرى والحياة النفسية على قواعد من هذا الأساس الروحى فعززت الإنسان لذلك بقوة الكون المعنوية جميعاً يقف بها فى وجه كل أرباب المادة والمؤمنين بسلطانها فيخضعهم لقوة روحه ويحملهم على اتباعه ويصل بهم إلى ما وصلت المسيحية من روما . وتاريخ الإسلام شاهد بأنه أنزل ليحطم فى النفس الصور المادية ممثلة فى هذه الأوثان التى كان العرب يؤمنون بها ، ممثلة كذلك فى كل إيمان بغير الله وحده لا شريك له . وقد حطم الإسلام فى انتشاره القوى السريع كل ما سوى هذا الإيمان من صور ، وأخضع كل ما فى الحياة من مادة وقوة للإيمان بالله يسمو به الإنسان فوق ما فى الحياة الدنيا جميعا ليكون بعض قوى الكون الباقية بقاء الروح المتصلة بالعالم وبالوجود كله منذ أزله إلى أبده .

وعلى الأساس الروحى أقرت المسيحية حضارة لم تدم فى صفائها طويلا أن اختلطت بالوثنية الرومانية وبعقائد السواد المصرى التى تدهور إليها التوحيد الفرعونى . لذلك تعرضت هذه الحضارة المسيحية لألوان من الاضطراب كانت مع عوامل أخرى مما أسرع بروما إلى الانهيار وما جعل الدولة البيزنطية تقف فى إبان قوتها من كل سلطان مادى موقف روع وفزع ، لا تحفزها الأسباب التى كانت تحفز روما إلى التوسع وإلى حمل علم الحضارة التى حملت روما إلى أنحاء العالم بكل عظمة ومجد . فلما جاء الإسلام وبدأ بتنظيم الحضارة الإسلامية حول فكرة التوحيد الروحية السامية أسرع إلى الانتشار وأسرعت الحضارة الإسلامية إلى الاستقرار فى الممالك المختلفة المترامية الأطراف بين المحيطين الأطلنطى والهادى ، وبعبارة أخرى فى ممالك العالم المعروف فى ذلك الحين . وقد وقفت المسيحية فى وجه الإسلام بعد أن حصرها فى أوربا عصوراً طويلة تريد أن تنفذ إلى قلب أفريقيا وآسيا ، وفى تلك العصور كانت الفكرة الروحية فى صفائها أول الأمر ثم مشوشة مضطربة على نحو ما وصفنا فى الفصلين السابقين ، هى اللواء الذى تتقدم به صفوف المسلمين وتتقدم به صفوف المسيحيين لغزو الإنسانية . وبرغم ما انحدرت إليه هذه الفكرة فى العصور المسيحية الوسطى ، وفيما سبق الغزو التركى وما لحقه فى العالم الإسلامى ، فقد بقى اسم الرب عند المسيحيين ، واسم الله عند المسلمين ، هو الذى تهتز له أوتار الأفئدة وتتوجه إليه القلوب فى طلب النصر والظفر ، وبقى الإنجيل عند المسيحيين ، وكتاب الله عند المسلمين ، آية هذه الحضارة التى يريد هؤلاء وأولئك أن ينشروا لواءها ليظل العالم جميعاً .

لو أن الحضارة الغربية سلكت فى محاولتها غزو العالم ما سلك الإسلام

وما سلكت المسيحية من قبل لكان لواء العلم خفاق البنود فى طليعة الغزاة الأوربيين لأمريكا بعد اكتشافها ، ولآسيا ولأفريقيا عند اقتحامهما . ولعل ذلك قد دار بخاطر بعض الفاتحين الأوربيين فقد رأينا « نابليون » إذ جاء إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وقد استصحب معه بعثة علمية تدرس أحوال مصر ، وأنشأ بالقاهرة مجمعاً علمياً فرنسياً . ولعله كان يريد أن يجعل هذا المعهد نواة لمعهد علمى مصرى إذا استقر الأمر لفرنسا على ضفاف النيل . وهذه المحاولة من « نابليون » لنشر أفكار الثورة الفرنسية فى مصر تجعلنا نعترف لهذه الثورة الفرنسية بما دار بخلد أبطالها من تبشير بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة فى أنحاء العالم التى غزت . لكن هذه المحاولة لم تدم طويلا ولم تتعد أوربا إلى غير مصر فى خلال الفترة القصيرة التى أقام الفرنسيون بها ، فأما ما قبل الثورة الفرنسية وما بعدها إلى وقتنا الحاضر فلم تقم الحضارة الأوربية لغزو العالم باسم العلم ولا باسم التفكير الحر ، وإنما قامت وتقوم لغزوه باسم الصناعة الأوربية وإقحامها على بلاد العالم جميعاً . وهذا الأساس المادى البحت هو الذى جعل أوربا تسمى حضارتها الحضارة الاقتصـــادية ، وما جعل المبادئ الاشتراكية من فردية واشتراكية وشيوعية هى الأساس الذى يقوم عليه كل نضال فى أوربا سواء فى شؤونها الفكرية أو السياسية ، والحافز الذى وجه الحضارة الغربية فى غزوها الشرق غزواً يجعل الحضارة الغربية مرادفة للاستعمار فى ربوعه .

والحق أن العلم والحرية العلمية لم يرتفع علمهما قط فى طلائع غزو الغرب سائر ربوع العالم . وندع الغزوات الأولى التى قام بها الإسبان فى أمريكا ، وندع الهجرة الإنجليزية للولايات المتحدة . فقد كان عنصر الاستعمار المادى هو الحافز لإسبانيا كما كان الفرار من وجه العسف

الدينى هو الحافز للإنجليز الذين ذهبوا إلى العالم الجديد . صحيح أن هؤلاء وأولئك لم تحركهم بعد استقرارهم بأمريكا أية عاطفة إنسانية إزاء أهلها حمر الهنود ، على العكس من ذلك قد جعلوا استئصال هؤلاء السكان الأصليين مرمى سياستهم وأساس حضارتهم . وكل الأعذار التى تصاغ لتبرير خطة الاستئصال أقصر من أن تسوغ هذا العمل الهمجى البحت . لكن أوربا كانت فى ذلك الحين على درجة متأخرة من الحضارة هى وحدها التى تنهض عذراً لها عن تلك الوحشية . ولسنا بمعرض التحدث عن أحوال العرب التى سبقت حضارته الحديثة . فلنتخط إذن هذه الفترة إلى حين بدأت أوربا تفاخر العالم بحريتها وبعلمها ، وحين بدأت تغزو الشرق بعد أن وقفت منه عصوراً وقروناً طويلة موقف الخائف الوجل .

حاولت أوربا أن تصل إلى آسيا فوجدت فى وجهها السد الإسلامى المنيع الممتد من مراكش إلى القسطنطينية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية جميعاً . ولم يدر بخاطرها أن تقتحم هذا السور وهى تذكر منعته وتخشى أن تتعرض للخسائر الفادحة من الأموال والرجال إذا هى أقدمت على اقتحامه . وما لم يكن الحافز للإنسان على مغامرة إيمان ثابت يستهين بالحياة فى سبيله ما استهان المسيحيون الأولون والمسلمون الأولون . فإن الغنم المادى ، وإن عظم ، أهون من أن يدفع بصاحبه إلى المخاطرات الجسيمة . وبالرغم مما استطاعت البرتغال من تحطيم الأسطول المصرى فى القرن الخامس عشر فإن اقتحام السور الإسلامى ظل خاطراً تضطرب له أعصاب أوربا . لذلك كان اكتشاف « فاسكو دى جاما » طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى آسيا بالدوران حول أفريقيا كلها هو الذى بعث الرجاء إلى نفس أوربا الظامئة لاستعمار الشرق . مع ذلك بقى هذا

الظمأ مكبوحاً فيما خلا محاولات هولندا والبرتغال فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حتى طوعت له مغامرات الأفراد ، فقد ذهب جماعة الإنجليز الذين كونوا شركة الهند الشرقية فى مدراس ، كما ذهب جماعة من الفرنسيين كذلك إلى الهند حيث أقاموا فى بوندتشرى . ولم يكن غرض هؤلاء ولا أولئك علمياً ، ولا كانت له صلة بالحرية ولا بالديمقراطية ، إنما كان غرضاً تجارياً مادياً بحتاً . وعلى أساس هذا الغرض توسعت الشركة الإنجليزية توسعاً أتاح للحكومة الإنجليزية مؤازرتها ، ثم كان مقدمة تغلب إنجلترا على النفوذ الفرنسى فى الهند وتوغل إنجلترا بعد ذلك فى هذه البلاد التى أقعدها الجمود الدينى والجمود الاجتماعى عن الحركة ، وقعد بها عن أن تدفع عن نفسها عدوان المعتدين . على الرغم من ذلك بقيت إنجلترا مترددة عشرات السنين دون اقتحام الممالك الهندية الخاضعة للنفوذ الإسلامى . لأن اسم الإسلام كان إلى يومئذ لا يزال مهيب الجانب محترماً مخوفاً .

هذا الأساس التجارى الذى أخذ بالتدريج صبغة الاستعمار هو الذى طبع غزو الحضارة الغربية الشرق ولا يزال يطبعه . وكانت الوسائل التى سلكتها أوربا فى هذا الغزو أقل ما تكون نفقات فى الأموال وفى مهج الرجال . فهى قد آثرت بادئ الرأى أن تترك العالم الإسلامى لا تتعرض له . ولم يكن ذلك حرصاً منها على صداقة هذا العالم . فأوربا لم تقم وزناً لاعتبار الصداقة يوماً من الأيام . إنما كان ذلك لأنها آثرت ألا تتعرض لاندحار قد يفسد عليها خطتها الاستعمارية . وكان ذلك لأن مبدأ القومية — الذى قام أساساً من أسس الحضارة تدعيماً للفكرة الديمقراطية — قد جعل دول أوربا ينظر بعضها إلى بعض نظر تنافس وخصومة فى الاستعمار ، لا نظر

تعاون وتضامن فى إذاعة العلم وبث حضارة تؤمن دول أوربا بأنها تكفل سعادة العالم وخيره . وفكرة القومية هذه هى التى أملت على أوربا سياستها الداخلية وسياستها الخارجية كما أملت عليها سياستها الاستعمارية . ولذلك كانت كل واحدة من الدول الأوربية تعمل تحت تأثير الفكرة القومية دائبة تريد إضعاف الدول الأوربية الأخرى . وكانت كل واحدة منها تخاف أن يتبعها غيرها إلى فتح فى الشرق جديد . لذلك هبت جميعاً تتسابق لكسب صداقة تركيا دولة الخلافة الإسلامية بدعوى ضمان سلامة الأراضى العثمانية . وفيما كان هذا الاتجاه يملى على دول أوربا الغربية سياستها جميعاً إذا « بطرس الأكبر » فى روسيا يحاول أن يسلك سياسة جديدة . وإذا به يحاول غزو تركيا والاستيلاء على البسفور والدردنيل ليطل الدب الأبيض برأسه على البحر الأبيض المتوسط . هنالك ازدادت دول أوربا الغربية حرصاً على سلامة الأراضى العثمانية . واطمأنت تركيا إلى هذا التنافس بين الدول وجعلت خطتها أن تزيد فى أسبابه معتقدة أنه كاف وحده ليكفل لها إلى الأبد البقاء . وأكد هذه العقيدة فى نفوس سلاطين تركيا أن وقفت أوربا فى وجه جهود « بطرس الأول » و « كاترين الثانية » ، وإن أبقت لبنى عثمان إمبراطوريتهم . ولقد نسى خليفة المسلمين أن كل سلامة مستمدة من نزاع الغير غير معتمدة على قوة الدولة الذاتية ، سلامة معرضة فى كل فرصة للخطر ، جديرة بأن تعرّض الدولة التى تعتمد عليها إلى الاضمحلال وإلى الفناء .

لم تكن الدول فى تنافسها لضمان سلامة الأراضى العثمانية ، بريئة من الغرض . وإذ كانت كل منها تعلم أن أية فكرة ترمى إلى غزو تركيا تقابل من جانب الدول الأوربية الأخرى بالتضامن مع تركيا فى صدها ، فقد وجهت هذه الدول مطامعها إلى ناحية أخرى ، ناحية التوسع فى الامتيازات

الأجنبية ، وجعلت كل واحدة منها تقتضى ثمناً لهذا الضمان توسعاً فى هذه الامتيازات يسمح لها بغزو سلمى لا اعتراض من جانب الدول الأخرى عليه بأكثر من مطالبتها تركيا بمثله . واغتبط الخلفاء العثمانيون لقصر نظرهم بهذا الثمن الذى حسبوه طفيفاً ، لذلك انقلبت الامتيازات الأجنبية التى كانت من قبل ضماناً من الحكومة التركية لحرية الأجانب ولعدم إعناتهم حقوق سيادة لهؤلاء الأجانب وللدول التى نزح هؤلاء الأجانب إلى تركيا منها . كانت غاية ما يطمع الأجنبى من حماية الامتيازات قبل هذا التوسع فيه ألا تفرض عليه ضرائب غير ما يفرض على العثمانيين ، وألا تقتضى هذه الضرائب بوسائل العنف والعسف . فأزال هذا التوسع حق الدولة العثمانية فى فرض الضرائب على الأجانب إلا أن ترضى دولهم . كانت التجارة والربح منها كل ما يطمع الأجنبى الوافد إلى البلاد العثمانية فيه ، فأصبحت مزاولة المهن الحرة ، ثم أصبح انتشار المدارس بعض ما لهؤلاء الأجانب ولدولهم من حقوق وسيادة تحد من السيادة العثمانية . كان الخليفة الإسلامى حامى حمى الملة والدين فى بلاده ، فأصبح التبشير المسيحى بعض الحقوق التى تكفلها الامتيازات الأجنبية فى حدود بلاد الدولة . ويقع هذا ويقع أضعافه برضا الخليفة التركى وهو به مغتبط لأنه الثمن الذى يحسبه متواضعاً لكفالة الدول الأوربية سلامة أراضيه العثمانية . وما تناله الدول الأوربية من حقوق فى تركيا برضا الخليفة العثمانى يمتد باسم الإسلام الذى يقوم الخليفة على حمايته إلى بلاد العالم الإسلامى كله حتى ما لم يكن منها تابعاً لتركيا . ومع فداحة هذا التغلغل فى شؤون الدول الإسلامية ، وهذا الاقتطاع من سيادتها فداحة سنعود إلى بيان بعض آثارها من بعد ، فقد أذعنت هذه الدول والحكومات الإسلامية للأمر الواقع ولم

تقم الشعوب الإسلامية من جانبها بشيء من رد الفعل ضده . بل ظل هذا التداخل باسم الامتيازات يستشرى وتستفحل آثاره والدول والشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية عنه لاهية بل به راضية ، غافلة عن النتيجة المحتومة التى لا بد أن تترتب عليه .

لماذا هذا الإذعان وهذا الاستخذاء ؟ !

لأن نظام الحكم ، ولأن الحياة الاجتماعية فى هذه الشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية كانت قد وصلت من الجمود إلى ما سبق لنا وصفه ، ولأن هذه الشعوب رأت فى الحياة الجديدة الوافدة عليها من أوربا صوراً تحطم من قيود الجمود وترد إلى الإنسان حظًّا من الحرية يجعل للحياة قيمة لم تكن لها . ومهما تكن الحرية التى جاء بها الأوربيون إلى الشرق متجهة إلى نواحى الحياة المادية أكثر من اتجاهها إلى نواحيها الفكرية والمعنوية فإن كل قدر يحطم من الجمود يبعث إلى النفس رجاء فى نعيم الحياة لم تكن تطمع من قبل فيه . فإذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة أن يرى أبناؤها أفكاراً جديدة يستريح إليها العقل ، وإذا أتاح هذا الاعتداء أن يعبر الإنسان عن فكره بحرية لم يكن يعرفها ، وإذا أتاح للإنسان أن يعيش حياة مادية أكثر رخاء ، وإذا بعث الأمل فى تحطيم قيود الجمود قيداً بعد قيد – إذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة هذا كله للأفراد نسى الأفراد الدولة وسيادتها ، وبخاصة إذا كان نظام هذه الدولة أوتقراطياً بشع الاستبداد كما كان الشأن فى تركيا ، وبخاصة إذا كان صاحب هذه السيادة راضياً عن تقييدها ثمناً لما يناله من ضمانة الإمبراطورية وسلامة أراضيها ، وكيف ترى تدافع الشعوب عن سيادة الدولة إذا كانت هذه السيادة ستاراً للعسف والظلم والقضاء على صور الحرية جميعاً ، وإذا كانت قيود هذه

السيادة تفتح فرجة أمل فى تحطيم قيود الحرية . إن الشعوب يومئذ لتفكر فى سعادتها وفى رخائها وفى طمأنينتها قبل التفكير فى سيادة الدولة . فإذا بلغت من ذلك مقاماً ترضاه توجهت بهمتها إلى نظام الدولة وإلى حقوقها . فإذا أصبحت الدولة ممثلة الشعب كما يجب أن تكون اتجهت جهود الشعب لاستكمال سيادة الدولة وحريتها وتضافرت لإقامة استقلالها ومجدها .

وثم اعتبار آخر هوّن على الشعوب إذعانها واستخذاءها . ذلك إذعان الحكومات واستخذاؤها . فهؤلاء الأجانب الذين وفدوا على مختلف البلاد الشرقية وأقاموا فيها ألواناً من حياة أوربا قد رأوا من حكومات هذه الدول ترحيباً بهم وإقبالا عليهم وحماية لهم يتمنى أهل البلاد بعضها ولا يجدونها . يجب إذن أن يكون هؤلاء الأجانب فى نظر تلك الحكومات الشرقية جديرين بهذا التقدير والاعتبار ويجب أن يكونوا أرقى فى مراتب الحياة لينالوا كل هذا الاعتبار . لذلك لم تنظر لهم تلك الشعوب على أنهم إخوان فى الإنسانية هجروا بلاداً ضاقت بهم فلم يجدوا فى المقام بها خيراً وهم لذلك جديرون بشىء من الإشفاق ، مطالبون بأن يقدروا هذا الإشفاق حق قدره . بل نظرت إليهم على أنهم أبناء أمم أسمى نفوساً وأرقى عقولا وأقدر على حكم الحياة وأجدر بأن يكونوا مثالاً يحتذى لينال محتذيه شيئاً مما ينالون من كرامة وحق وسلطان على الحياة . وقد حصل الذين احتذوا مثال هؤلاء الأجانب من حكوماتهم الشرقية على شىء من ذلك كله مما لم يكونوا يحصلون عليه من قبل ، ومما لا يحصل عليه من لم يتخذوا الأجنبى قدوتهم ولم يخرجوا بذلك على قديم جمودهم . وشجع هذا السبق فى ميادين الحياة على اتساع نطاق الاحتذاء وعلى محاكاة الطائفة الحاكمة من أهل البلاد

لهذه الحياة التى وردت مع الجاليات الأجنبية . ولم يكن ذلك عجباً وقد جعلت الحكومات نفسها تستورد من صور هذه الحياة ما تراه حقًّا بأن ينيلها عطف هذه الدول التى أطلقت على نفسها اسم « العالم المتمدين » . استوردت الحكومات أسماء النظم الأوربية وصورها الظاهرة مكتفية بذلك عن حقائقها وقيمها الذاتية . أقامت هيئات إلى جانب الحكم المطلق أطلقت عليها اسم الشورى أو النيابة عن الأمة لتضاهى البرلمانات ومجالس النواب . أنشأت مدارس وألبست أبناءها الزى الأوربى وأدخلت فيها تعليم بعض اللغات الأجنبية لتضاهى المدارس الأوربية . أقامت للعدل نظماً صورها الظاهرة كالنظم الموجودة فى أوربا . وكان ذلك كله اعترافاً منها بأن الحياة الأوربية هى الكفيل بالرقى فى سلم التمدن وأن النهج على منوالها هو الذى يسمو بالإنسان إلى مقام الحضارة . ولكى يكون لهذه المظاهر جميعاً من حسن السمعة ما يوهم عظيم شبهها بأمثالها فى أوربا استعارت حكومات الشرق رجالاً من الغرب لإتقان تصوير هذه المظاهر . فلا غرو إذا نزع أبناء الشعوب الشرقية إلى محاكاة الوافدين عليهم من أبناء الغرب فى مظاهر حياتهم ، وإذا اعتبرت هذه الشعوب فى ذلك ما يقربها من حضارة الغرب وما يكاد يدفع حضارة الغرب بحيالها .

ولعل مصر كانت أكثر دول الشرق سبقاً فى هذا الميدان ؛ فمصر بطبيعة مركزها الجغرافى هى عقدة الاتصال بين الشرق والغرب ، ومصر كانت أيالة « ولاية » عثمانية كغيرها من سائر أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، لكنها كانت على خلاف غيرها دائمة التمرد والثورة على سلطان الدولة . وقد ظهر ذلك من قبل الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر حين أعلن « إبراهيم بك الكبير » استقلالها ، كما ظهر بعد الحملة

الفرنسية حين عينت تركيا « محمد علي باشا » والياً على مصر فاستفاد من تمردها ومن ثورتها على الدولة ومن قوتها الذاتية قوة قام بها فى وجه تركيا ، واندفع بها إلى غزوها جاعلا الآستانة هدفه ، قاصداً وضع يده على مقر الخلافة ليقيم بها خليفة للمسلمين ، أو ليرد الخلافة إلى القاهرة ويقوم هو خليفة فيها مكان الخليفة الذى انتزعه الأتراك منها . ولشد ما عطفت أوربا على هذا العصيان الذى قام به والى مصر فى وجه متبوعه خليفة المسلمين وما شجعته . ومع أنها وقفت دون « محمد على » وبلوغه غايته فإنها قد أبدت من الحرص على تأييده بمنح مصر استقلالها الذاتى تحت إمرته وإمرة أسرته من بعده ويجعل فلسطين وسوريا تحت حكمه ما جعله يقدر هذا العطف ويفتح للأجانب فى مصر باباً كان من قبل موصداً . ولم يكتف « محمد على » بفتح هذا الباب ثمناً لعطف فرنسا ممثلة أوربا يومئذ عليه ، بل أقبل هو على الأجانب واتخذ له منهم مستشارين وأنصاراً وجعل منهم قواداً لجيشه ، ومهد بذلك لتغزو الحياة الأوربية مصر غزواً سريعاً . وقد ظهرت نتائج هذا الغزو بعد زمن قصير حين عقد « دلسبس » مع « سعيد باشا » اتفاقية قناة السويس ، وحين نادى « إسماعيل باشا » بأن مصر لم تعد جزءاً من أفريقيا بل أصبحت قسماً من أوربا ، وحين توالت الحوادث بعد ذلك سراعاً لتمهد الطريق لإنجلترا كى تضع يدها على مصر .

كان من أثر هذا التطور فى حياة دول الشرق وشعوبه وتوجهها نحو الحياة الأوربية تنسج على مثالها أن بدأت البعثات التعليمية الأوربية تفد إلى الشرق وتستقر به . وكانت هذه البعثات التعليمية بدء الغزو الصحيح ، وكان ذلك تقدير أوربا لها . فما دام الشرقيون يقبلون على الحياة الغربية

فليهيئ الغرب لهم أسباب محاكاتها وليجعل التعليم وسيلته إلى ذلك ، لكن أمر هذه البعثات يستلفت النظر ، فقد رأينا أوربا تتدرج منذ البعث فى القرن الخامس عشر إلى حرية الفكر وإلى تحطيم القيود التى غللت بها الكنيسة هذه الحرية ، وإلى إقامة نظم تعليمية مستقلة عن الكنيسة وعن رجال الدين . مع ذلك كانت هذه البعثات التى جاءت إلى الشرق بعثات دينية كلها . ولقد يخال الإنسان بادئ الرأى أن هؤلاء الذين وفدوا إلى الشرق من رجال الدين المسيحى على مختلف مذاهبهم ونحلهم إنما وفدوا إليه لتضييق حكوماتهم نطاق التعليم الدينى فى بلادهم واعتبارها أدوات جمود وتأخر . لكن هذه البعثات الدينية لقيت منذ اللحظة الأولى حماية من لدن حكوماتها المختلفة لم يلقها غيرها من الأجانب الذين جاءوا إلى الشرق . وكان المتبادر إلى الظن ألا تعطف حكومات أوربا كل هذا العطف على جماعة تعتبرهم سبباً من أسباب تأخر أوطانهم مادامت تريد أن ترفع فى ربوع العالم كله لواء حضارتها الجديدة . لكن الأمر كان لا يزال على النقيض من هذا المتبادر إلى الظن . ومتتبع تقارير ممثلى الدول الأوربية فى الشرق منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى وقتنا الحاضر يعجب لما يرى فيها من شدة الحرص على حماية هذه البعثات حماية لا يتردد الإنسان معها فى اعتبار البعثات التعليمية الدينية غزوة منظمة وجهتها أوربا إلى الشرق لغايات سياسية .

كيف كانت هذه البعثات غزواً سياسياً منظماً وجهته أوربا للشرق ؟ رأيت أن تركيا ، باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية الحائلة بامتدادها حول البحر الأبيض المتوسط دون غزو أوربا لأفريقيا وآسيا ، كانت موضع نظر خاص من جانب دول أوربا . فتنافسها بحكم القومية جعلها تتسابق إلى أن تكفل سلامة

الأراضي العثمانية وحرصها على اختراق هذا النطاق وعلى وضع يدها عليه جعلها تعمل لتشجيع العوامل التي تضعف هذه الدولة العثمانية ؛ فهي قد صدت روسيا بعد أن تراجعت تركيا أمامها ، وهي قد أعادت « محمد علي » إلى مصر بعد أن كان على مقربة من القسطنطينية ، وهي قد شجعت اليونان وشجعت الدول البلقانية على الانتقاض على تركيا . لكن تركيا إذا تركت وشأنها بعد هذه الضربات التي أصابتها والتي صدتها أوربا عنها ضماناً لسلامتها فقد تستفيد من هذا الدرس القاسي وقد تراجع النظر في أمرها . فلتختر أوربا الجهات التي يكثر فيها المسيحيون من بلاد آل عثمان ولتوجه إليها غزوتها التعليمية بقوة أكبر مما وجهت لسائر بلاد الدولة ، واختارت أوربا لبنان لهذا الغرض وبعثت إليه البعوث وأنشأت فيه المدارس منذ سنة ١٧٥٠ . وكان أهل لبنان إلى يومئذ لا يجعلون الخلاف في الدين سبباً لاختلاف سياسي ، لكن هذه البعثات الدينية الأوربية عملت بتأييد دول الغرب المختلفة لتعليم المسيحيين من أهل لبنان ولإقناعهم بأن ما ينزل بهم ليس مرجعه إلى نظام الحكم في الإمبراطورية العثمانية كلها ، ولكن مرجعه إلى أنهم مسيحيون ، وأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية ؟ وبهذه التعاليم تهيأت نفوس أهل لبنان للانتقاض على الحكومة المركزية .

قد يكون رجال هذه البعثات مخلصين لرأيهم فيما علموا أهل لبنان ، ولكنهم كانوا أدوات السياسة الغربية ، سياسة الاستعمار المادي الذي لا يعنى بالعقيدة ولا بالدين إلا بمقدار ما يصل به إلى أغراضه . وقد انتقض لبنان بالفعل في سنة ١٨٦٠ وتدخلت الدول الأوربية لتأييد انتقاضه وكفلت له الحكم الذاتي الذي كفلت لمحمد علي في مصر قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وبذلك أقامت من لبنان الجبل الحصين نتوءاً في جنب

السور الإسلامى ، كما أقامت من مصر قبل ذلك نتوءاً آخر أشد من لبنان خطراً بسبب هذا الموقع الجغرافى الممتاز الذى يجعل مصر موضع الصلة بين البحرين الأبيض والأحمر موضع الصلة لذلك بين قارات العالم الخمس جميعاً .

كان من نتيجة هذا الغزو التعليمى وما أذاع فى الشرق من أدب جديد وتفكير جديد أن زاد أهل الشرق شعوراً بما جنى الجمود عليهم وإقبالاً على هذه الحضارة المتقدمة . ولكن كيف يكون هذا الإقبال ؟ أيكون بنزع القديم كله وارتداء ثوب الحضارة الجديدة ؟ لقد نزعت بعض الأمم فيها بعد الحرب الكبرى الأخيرة هذا المنزع ، كما فعلت تركيا وكما حاولت أفغانستان أن تفعل . . لكن هذا المنزع لم يكن ميسوراً قبل الحرب حينما كانت شعوب الشرق ما تزال تحسب نفسها قديرة على استعادة مجد كان لها . لذلك بدأ أهل الشرق يفكرون فى أسباب تغلب الحضارة الجديدة عليهم ، وفى وسائل الوقوف على أقدامهم إزاءها . وتفكير الضعيف فى سبب ضعفه تفكير مطمئن بطبعه للاعتراف بما هو متورط فيه من الخطأ وما هو شر من الخطأ ، لذلك كان الأخذ بوسائل العمل لمجابهة الحضارة الغازية أسرع من التفكير فى التغلب على أسباب الضعف . وكان هذا العمل لمجابهة الحضارة الغازية سطحيًّا ، هو ما يتبادر إلى ذهن الإنسان العادى فى أى ظرف من الظروف . فهذا العمل إنما هو محاكاة الغرب صاحب هذه الحضارة . ومحاكاة الغرب تكون باستعارة مظاهر حضارته ، وتكون بإرسال جماعة من أبناء الشرق للوقوف على أسرار هذه الحضارة .

وقد كان هذا تفكير مصر منذ عهد « محمد على » ، وكان تفكيرها بعد ذلك . وهو قد كان كذلك تفكير بلاد غير مصر فى الشرق . لكن النشاط فى هذه الناحية بدأ نشاطاً حكومياً ، ثم فتر زمناً إلى أن أتاحت

ظروف خاصة للأفراد التفكير فيه .

أدهشت الحضارة الغربية أعضاء هذه البعثات فكل مظاهرها جديدة أمامهم ، والمظاهر المعنوية فى ذلك كالمظاهـر المادية سواء . وهذه وتلك كلها قوية ناشطة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، مستندة كلها إلى هذه الحرية التى كسبت أوربا فى مختلف الميادين بعد نضال القرون . فالعلم والفن والأدب والفلسفة وسائر مظاهر التفكير جديدة كلها ، بالقياس إلى ما خلفوا وراءهم فى بلادهم . والصناعة والتجارة ومعدات النقل وأسباب الملاحة ضخمة هائلة لا يرى فى الشرق منها إلا ما كان وارداً من الغرب . وهذه الحرية التى يستند ذلك كله إليها ، تتهم فى الشرق بمنافاتها لقواعد الخلق ولمقتضيات الفضيلة . وليس يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن رجال الدين فى الغرب يحدثون هؤلاء الذين أوفدهم الشرق حديثاً غير الذى يحدثهم رجال دينهم ؛ يحدثونهم حديثاً أساسه التعقل واحترام الحرية ، ويحدثونهم عن الخلق وعن الفضيلة وعن المحبة الإنسانية حديثاً قلما تخالطه الخرافة . فمن حق هؤلاء الشرقيين أن يندهشوا ، ومن حقهم أن يشعروا بسبق الغرب إياهم ، وبأن حضارة الغرب إنما هى الحضارة الواجب أن تنتقل إلى الشرق إذا أريد بالشرق أن يخرج من جموده وأن يفيق من سباته . فما هى الوسيلة ، بل ما هى الوسائل لنقل هذه الحضارة ؟

يستغرق التفكير فى هذه الوسائل السنين الطوال . لكن هذه النتيجة التى وصل إليها من تثقفوا بثقافة الغرب من أبناء الشرق ، جعلت نظرتهم إلى بلادهم نظرة إشفاق لا تخلو من ازدراء ما فيها من العناصر الحيوية التى كان يجب أن تدفع بها إلى الأمام فإذا هى تردها القهقرى خطوات فسيحة . ومن شأن هذه النظرة أن تضعف فى النفوس القوة المعنوية أضعاف .

ما ضعضعت البعثات الدينية الأجنبية من هذه القـوة . ثم زاد فى ضعفها عامل آخر جدير بالاعتبار هو الآخر ، وهو من نوع هذين العاملين من حيث إنه عامل تعليمى مرجعه إلى تدريس تاريخ الشرق لأهـل الشرق .

فقـد جعل أهل الغرب همهم تصوير تاريخ الشرق تصويراً يجعـل الناشئين من أهله يعتبرون بلادهم بطبيعة تاريخها غير أهل لما بلغت أوربا ، فواجب عليها أن تذعن لقيام أوربا بتعليمها وإعدادها للحرية وللحكم . فمصر مثلا لم تحكم نفسها – فى رأى الأوربيين الاستعماريين – منذ انتهى عهد الفراعنة . بل خضعت لحكم اليونان والرومان والعرب والترك عصوراً وقروناً . وشعب هذه وراثته فى الحكم لا يمكن أن يعرف الحرية ، أو يعرف كيف يتولى بنفسه الحكم . ومع فساد هذه النظرية من الجهة العلمية النزيهة ، فقد ظلت تروج وتروج ، ويخلع عليها الأدب والفن من مختلف الصور ما نزل بها إلى نفوس الشعب فأضعفها . وتركيا – مع الاعتراف لها بتفوق ملكاتها الحربية – هى الرجل المشرف على الموت الذى ليس من موته بد . وبلاد العرب المندمجة فى الإمبراطورية العثمانية قد خضعت لغير العرب منذ الفتح الإسلامى ، ثم عصف بها الحكم التركى فقضى فى نفوس أهلها على كل ملكات الحرية والحكم .

أما الجزائر وأما تونس فقد وقعت فى حكم فرنسا . وقعت الأولى فى أوائل القرن التاسع عشر ، بينما ظلت الثانية حتى حوّل بسمرك أنظار فرنسا إليها بعد حرب السبعين ليشغلها بها عن هزيمتها فى تلك الحرب من ناحية ، وليشغلها عن مجهوده الجبار فى إقامة الوحدة الجرمانية من الناحية الأخرى ، وما نفثت أوربا من سموم الانحلال فى مصر وفى الشرق الأدنى نفثته فرنسا

فى الجزائر وفى تونس . وإذن فليؤمن الشرق كله بأنه فى حاجة إلى حضارة الغرب إذا أراد أن يحيا وأن يعرف للحرية طعماً ، وليؤمن تبعاً لذلك بأنه فى حاجة إلى دول الغرب لمعاونته على الحياة وعلى الحرية .

وتقدم الغرب لمعاونة الشرق ، ولكن أية معونة ؟ من يريد أن يستغل استغلالاً اقتصادياً فاحشاً تحت ظاهر من نشر لواء حضارته . فحضارة العلم قد عنيت فى الشرق بتضييق نطاق العلم غاية التضييق . عكفت البعثات التبشيرية فى البلاد التى ظلت مستقلة على بث ذلك التاريخ المشوه للشرق فى نفوس أبنائه ، وعلى إشراب تلاميذها العقيدة بأن الشرق بحكم دينه الغالب ، وبحكم تاريخه ، لا سبيل إلى تقدمه ما لم ينزع عنه ثوب هذا الدين ، وما لم يفصل بينه وبين ماضيه بسياج متين . فأما فى البلاد التى امتد نفوذ الغرب فيها ، فقد حصر التعليم فى أضيق دائرة ممكنة ، وجعل أداة لتخريج موظفين يدينون بالطاعة والإذعان للغرب صاحب السبق والتقدم أو صاحب النفوذ السياسى فى البلاد . وقد أشار لورد «كرومر» فى تقاريره عن التعليم بمصر إلى ذلك غير مرة بعبارات صريحة . بل أضاف إلى ذلك أن لغة أهل الشرق (العربية) غير قادرة على أن تحمل رسالة العلم ، فلا بد لمن يريد أن يدرك هذه الرسالة من أن يصل إليها عن طريق لغة أوربية . وهذه كلها لا ريب عقبات ، عمل الغرب لوضعها فى طريق الشرق حتى لا تسرع إليه رسالة العلم الصحيح تدفعه إلى حمى الحرية والحق ، وتجعله يقف مع الغرب جنباً لجنب بدل أن يذعن له ويطأطئ رأسه أمامه .

وفيما كانت هذه العوامل كلها تضعضع من إيمان الشرق بنفسه ، كانت صناعة الغرب تغزو الشرق غزواً ذريعاً ، وكانت سياسة الغرب

تقيم فى وجه الشرق كل عقبة إذا أراد أن ينافس بصناعته صناعة الغرب . وكان الاستعمار الاقتصادى يتخذ من علم الغرب ومن أدبه ومن فلسفته وسيلة لإضاعة ما عند الشرق من ثقة بنفسه ، ولإقناعه بأنه أصبح إلى أجيال عالة على الغرب لا سبيل له إلى الاستغناء عنه . وقد بلغ الغرب من ذلك أن أصبحت بلاد الشرق مقصورة على إنتاج الخامات التى تحتاج إليها الصناعة ، قاصرة عن أن تنتج فى ميادين العلم والأدب والفن شيئاً يذكر . وإن أصبح كل ما فى الشرق من مظاهر الحضارة مستعاراً من الغرب ، حتى لو أنك نزعت ما فى الشرق من علمه وأدبه وفنه وصناعته وتجارته،إذن لرأيت الشرق أجرد عارياً إلا من خصب أراضيه ومن أذرع الفلاحين والعمال فيه .

هل أسلم الشرق نفسه لهذا الفناء فى الغرب ؟ أم أنه حاول أن يقاوم وبأى مقدار ؟

نقف فى هذا الفصل عند الغزو الأوربى للشرق إلى ما قبل الحرب الكبرى التى شبت نارها فى الثانى من أغسطس سنة ١٩١٤ . إلى ذلك الحين كان غزو الغرب بلاد الشرق معتمداً على ما قدمنا بصفة عامة ، معتمداً إلى جانب ما قدمنا على القوة المادية والهيبة العسكرية فى البلاد التى غزاها الغرب . وقد كانت تتنازع الشرق إزاء ذلك كله نوازع مختلفة الموجات . كان الشرق كله تفيض نفسه أسى وحسرة على ما أصابه . لكن رد الفعل فيه كان يختلف باختلاف الطوائف والهيئات . فمن هذه من رأى كل مقاومة غير مجدية ، ومن آمن أكثر من ذلك بتعاليم الغرب بأن الشرق لم يبق أهلاً لحكم نفسه ، وأنه لو ترك وشأنه لمزق أهله بعضهم بعضاً كل ممزق . ولفشت فيه آثار الاستبداد جميعاً من ظلم وقسوة وانتقام ورشوة وفساد خلق .

وأن ليس له لذلك إلا أن يذعن للغرب وأن يسلم له قياده حتى يعلمه الغرب حكم نفسه ، أو حتى تتم المعجزة فيبعث الله من يقيم الشرق من الوهدة التى تردى فيها . وآخرون كانت تثور نفوسهم لما يسلب الغرب الشرق حريته فينادون بحرية الشعوب اعتماداً على حقها فى الحرية واعتماداً على مبادئ الحق التى قررت الثورة الفرنسية . وهؤلاء كانوا يتخذون من ضرب مصالح الأمم الغربية بعضها ببعض وسيلة للغاية التى يصبون إليها من تحرير أوطانهم محتذين فى ذلك حذو الدولة العثمانية فى اعتمادها على تنافس الدول الأجنبية لضمان سلامتها ، كما كانوا يعتمدون على استفزاز حماسة الشعوب المظلومة ليشعروا المستعمرين بأن مصالحهم معرضة للخطر إذا هم ظلوا فى سلبهم لحرية الأمم التى يظلمون . وآخرون غير هؤلاء وأولئك كانوا يعتقدون أن الإذعان والتسليم أمر يتنافى وطبائع الأمم . وأن الاعتماد على تضارب مصالح الدول الغربية اعتماد غير مثمر . لأن هذه الأمم تتفق فيما بينها على حساب الأمم المظلومة ، فتنازعها لن يكون من أثره إلا ازدياد هذه الأمم المظلومة عدداً . وأن استفزاز الشعور وحده غير كاف لطرد المستعمر من بلاد يجد فيها مغنماً ماديًّا ، أو يجد فيها نقطة ارتكاز لسياسته الاستعمارية أو العسكرية . فإذا أريد أن تقاوم أمم الشرق استعمار الغرب فلا مفر من تقوية الروح المعنوية فى أمم الشرق تقوية أساسية ثابتة تجعل أصحاب هذا الروح يأبون الضيم ويفضلون عليه الاستشهاد ، وأن تقوية الروح المعنوية على هذه الصورة لا يكون إلا إذا شعرت هذه الأمم بأن لديها من مقومات الحياة ما لدى أمم الغرب من علم وفن وأدب وصناعة ، وأن الاعتماد على الحكومات فى هذا ضرب من السخف لأن الحكومات إما استبدادية كما كانت فى تركيا وفى فارس وفى الأفغان فهى تخاف العلم والفن والأدب

والصناعة كما يخافها المستعمر سواء بسواء ، وإما خاضعة لحكم المستعمر فلا رجاء فى مقاومتها سياسته ، وفى إقامتها العلم والفن والأدب والصناعة مما يدك أركان هذه السياسة . فلا بد من أن تقوم حركة أهلية منظمة تعمل لتقوى الروح المعنوية وإن احتاجت فى ذلك إلى ما تحتاج إليه من جهود شاقة وعمل متصل على السنين .

كانت هذه النزعات الثلاث قائمة بنفوس البلاد الشرقية إلى ما قبل الحرب . ومع أنها على ما ترى نزعات لا يمكن أن تعترض بعضها بعضاً ، بل يمكن على العكس أن تتجاوز وتعمل متضامنة — والنزعتان الأخيرتان منها بنوع خاص — فإن السياسة الغربية الواسعة الحيلة قد تمكنت من أن تضربها بعضها ببعض ، وأن تقيم أصحابها وجههم فى وجه بعض ، وأن تجعلهم يترامون بتهم شنعاء أقلها المروق من الوطنية أو الخرف فيها . وقد تعجب إذ ترى أن ما حسبته تركيا ضماناً لسلامتها حين ضربت الدول بعضها ببعض قد أدى إلى استفحال شأن الامتيازات الأجنبية فيها وفى البلاد الشرقية كافة — قد انقلبت نتيجته حين ضربت سياسة الاستعمار طوائف الأمم المغلوبة بعضها ببعض فزادتها بذلك ضعفاً ، ولكن لا عجب . فالبذرتان المتشابهتان يختلف ثمرهما إذا زرعت إحداهما فى أرض قوية والأخرى فى أرض سبخة . وفرق بين سياسة تقوم على الضعف وتستمد وجودها من تنازع الدول على السلطان الذى يقوم بها وعلى بلاده ، وبين سياسة تعضدها القوة المادية والهيبة العسكرية وتستند إلى ما كسبت أوربا خلال القرون التى أعقبت عصر البعث من علم وفن وسياسة .

هذه الصورة التى رسمنا من صلات الغرب والشرق فى عصر الاستعمار — أى منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى حين نشوب الحرب الكبرى —

تدلنا على أن أوربا قد غزت الشرق غزو استعمار ، لا غزو حضارة . قد غزته غزواً ماديًّا لم تقصد منه إلى أن تظله بلواء حضارتها العلمية . . بل غزواً اقتصاديًّا كان كل غرضها منه استغلاله استغلالاً اقتصاديًّا . قد يقال إن الغزو كان يرمى فى كل العصور إلى الغلب السياسى وإلى الاستغلال الاقتصادى . وهذا صحيح فى مجموعه ، وهو صحيح فى الغزو الإسلامى صحته فى الغزو المسيحى . لكن الغزو الإسلامى والغزو المسيحى كانا إلى جانب الغلب السياسى والاستغلال الاقتصادى يقيمان حيث أقاما روحاً معنويًّا ونظاماً روحيًّا لم يقصد به يوماً إلى إضعاف ثقة الأمة ، التى نزل هذا الغزو فيها ، بنفسها ، ولا هو عمد إلى تشويه تاريخها وحبس العلم عن أهلها وعدم السماح لهم إلا بالنزر منه . ويشهد التاريخ أن الحضارة الإسلامية أظلت بلوائها كل بقاع الأرض التى انتشر الإسلام فيها . وكذلك الشأن مع الحضارة المسيحية ، لكنا لا نحسب أهل الغرب أنفسهم يرون شرفاً لحضارة الغرب أن يقولوا إنها أظلت البلاد التى حكم الغرب بلوائها . فإنما نشر الغرب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح المعنوى فى الشعوب التى نزلت بها ، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس فى تلك الشعوب ، كما نشرت بينها روحاً مادية قتلاً للإيمان بكل المعانى السامية أو المثل العليا توطيداً للاستعمار وآثاره . وهذا الروح المادى هو ما يعمل المستعمرون لنشره أنى ذهبوا ؛ لأنهم يرونه الصلة الوحيدة التى تربط الحاكم بالمحكوم فى كل أمة ليس بين الحاكم والمحكوم فيها صلات لغة أو جنس أو دين . أفنجحت هذه السياسة فى ربط الغرب بالشرق حين أعلنت الحرب الكبرى ؟ وهل نجحت من بعد ذلك فى توطيد السلام فى ربوع العالم ؟ فلننتظر قليلا ثم نرى .